العصر العباسى الثانى
(٣٣٤ – ٦٥٦ هـ)

العوامل المؤثرة في الأدب
في العصر العباسي الثاني

أ - الحياة السياسية :

يطلق على المدة الزمنية من ٣٣٤هـ إلى ٦٥٦هـ - أو إلى ما بعد هذا التاريخ حتى بداية العصر الحديث - عصر الدويلات، وذلك منذ دخول "أحمد معز الدولة بن بويه" بغداد في عهد "المُستكفي" وتأسيس دولته فيها.

فقد ظلت الدويلات تتعاقب على أجزاء الدولة الإسلامية منذ ذلك الحين حتى مطلع العصر الحديث.

فقد قامت الدولة "البويهية" في "بغداد"، والسلجوقية في "فارس"، والحمدانية في "حلب"، والفاطمية في "مصر" إلى غير ذلك من الدويلات.

هذا التقسيم قائم على أساس بقاء الخليفة العباسي الواحد، والعاصمة العباسية الواحدة على الرغم من سيطرة الأتراك على هذا الخليفة، وتحكمهم في تعيينه وعزله فقد كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة، يولّون الخلفاء ويعزلونهم، بل ويسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر، أو يدعون فإنما هو تدبيرهم.

وقد صوّر ذلك أحد الشعراء، فقال:

خليفـــة فـــي قفـــص ∴ بـــين وصـــيف وبغـــا

يقولـــون مـــا قـــالا لـــه ∴ كمـــا يقـــول الببغـــا

وظلت الأمور تسير على هذا المنوال من سيء إلى أسوأ، ونفوذ الترك يزداد يوماً بعد يوم، ولم يكد يبدأ القرن الرابع الهجري حتى انقسمت الدولة الإسلامية، وانفرط عقدها إلى دويلات صغيرة، وإمارات مبعثرة[1].

وهذا الانقسام وإن كان قد أدى إلى ضعف الدولة سياسياً وحربياً، إلا أنه عاد على

---

(١) دراسات في الأدب في العصر العباسي - د/ عيد قناوي - ص١١ وما بعدها - بتصرف.

الحياة الأدبية بالرقى والازدهار، للأسباب الآتية :

١ – التنافس الشديد بين ملوك وأمراء هذه الدويلات، ورغبة كل منهم فى إقامة دولته على أسس راسخة من الحضارة والتمدين والعلم والأدب.

٢ – لم تعد "بغداد" وحدها مركز النشاط العلمى والأدبى، بل تعددت المراكز العلمية والأدبية، ونافست "بغداد" فى حمل رسالة الثقافة العربية والإسلامية.

٣ – أتيحت للشعراء فرصة السفر والتجوال بين أقطار العالم الإسلامية، وقد مكّنهم ذلك من التعرّف على جمال الطبيعة، وتنوّع مظاهرها، وقد برز فى هذا المجال شعراء كثيرون، من أمثال "الصنوبرى"، و"الرفاء" فى دولة الشام الحمدانية، و"تميم بن المعز"، و"الشريف العقيلى" من دولة مصر الفاطمية.

٤ – عنيت العناصر العربية بتشجيع النهضة الأدبية بصفة عامة، والشعرية منها بصفة خاصة؛ استجابة لبواعث الذوق والفطرة، والملكة العربية الأصيلة، فتبوأ الشعر مكانة عالية، ومنزلة سامية.

٥ – تأثرت اللغة العربية وآدابها بما كان للفرس من حضارة ومدنية، وفصاحة وبيان وكان حفظ الشعر من هذا التأثير الكبير. فأدخل على الشعر الخيال اللطيف المحلّق والتعبير الدقيق. والإحساس الناقد العميق.

٦ – دفع الانقسام العباسى ملوك وأمراء الدويلات الناشئة فى ظله إلى الحرص الشديد على الشعر والاحتفاء به، والحفاوة البالغة بفرسانه؛ لأنهم يمثلون الجهاز الإعلامى الخطير للدولة، يثبتون ملكها، ويشيدون بأيامها، ويذيعون مفاخرها، وقد فهم كثير من ملوك وأمراء هذه الدول أن الشعر خير منبر لدعوة الناس إلا ما تعتنقه الدولة من مذهب، أو ما تدعوا إليه.

بهذه الأسباب وغيرها نهض العلم والأدب فى ظل الانقسام السياسى، والدويلات التى تمخضت عنه[1].

---

(١) ملامح الحياة الأدبية فى عصر الدويلات د/ جلال حمارى ص١٣.

الدولة البويهية

ينتهى البويهيون إلى رجل كان يسمى "أبا شجاع بويه" من بلاد "الديلم" الواقعة فى الجنوب الغربى من شاطى بحر الخزر، ولم يكن لهذه البلاد تاريخ يذكر قبل توسع البويهيين الديالمة، وكان "أبو شجاع بويه" فى أول أمره فقيراً يعيش هو وأولاده : أحمد وعلى، والحسن على صيد السمك ، احتطاب الحطب. ثم ألحق الأولاد الثلاثة جنوداً فى خدمة قوات الديالمة، واستطاع الإخوة الثلاثة بذكائهم وعزيمتهم أن يدخلوا التاريخ ويصلوا إلى قمة المجد، بعدما كانوا يعيشون فيه من فقر مدقع!!

وذلك أن الإخوة الثلاثة ظلوا يتوسّعون فى فتوحاتهم، حتى بسطوا أيديهم على "فارس" و"العراق"، وتمكن "أحمد بن بويه" من دخول "بغداد" فى الحادى عشر من جمادى الأول سنة ٣٣٤هـ فى عهد الخليفة العباسى "المستكفى"، حيث لقب "أحمد" بـ "عز الدولة" ولقب "الحسن" بـ "ركن الدولة"، ولقب "على" بـ "عماد الدولة".

وتمكن الإخوة الثلاثة من حكم "العراق" و"فارس" باسم الخليفة العباسى، وقضوا على النفوذ التركى، وأقام "عماد الدولة" فى "شيراز"، وركن الدولة فى "السرى"، ومعز الدولة فى "بغداد"، ثم جاء "عضد الدولة بن ركن الدولة"، فضم إليه ملك البويهيين جميعاً، وضم إليه "الموصل" و"بلاد الجزيرة"، وسمى بالملك، وهو أول من سمى بهذا الاسم فى الإسلام، وكان يقيم أحياناً فى "شيراز"، وأحياناً فى "السرى"، فلما فتح "العراق" كانت عاصمة ملكه "بغداد"[1].

يقول عنه الدكتور / شوقى ضيف: "وعضد الدولة هو أعظم ملوك بنى بويه، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته ، وهو أول من خطب له، فيما يقال على منابر "بغداد" بعد الخلفاء. وأول من لقب بـ "شاهنشاه"، أى (ملك الملوك) فى الإسلام وأصبح البويهيون بعد يلقبونه بهذا اللقب، وكان ذا قسوة شديدة، ومما يصور ذلك رميه

---

(١) تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر – د/ أحمد أحمد منصور نفادى ص٥٥ .

باب يقيه الوزير تحت أرجل الفيلة، فقتلته بأرجلها شر قتلة، وقد قضى على لصوص الطريق قضاء مبرماً، وأعاد الأمن إلى نصابه فى صحراء "كرمان" وصحراء "جزيرة العرب" ورفع عن قوافل الحجاج الجباية، واحتفر لهم الآبار فى سبلهم إلى "مكة"، وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصيناً، وأمر بعمارة منزل "بغداد" وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد وعنى بالبساتين، فامتلأت خرابات "بغداد" بالزهر والخضرة[1].

الأدب فى ظلال البويهيين :

تُعدّ الدولة البويهية من أقوى الدول التى انفصلت عن الدولة العباسية وأقواها أدباً وأكثر علماء ورجالاً، ففى ظلال هذه الدولة حلّق الأدب فى سماء عالية، وأصبحت له المكانة العليا، والمنزلة العظمى فى عهدهم، مما يندر أن نجد مثيلاً لهذا العصر على مر الزمان، فقد أخرج لنا علماؤه وأدباؤه وفلاسفته الدرر التى شعت أضواؤها، فبددت ما كان هناك من ظلام.

أقبل البويهيون على الأدب العربى يدرسونه، ويتذوقونه، ويدفعونه للناس على لسان الشعراء الذين أغدقوا عليهم الكثير من الصِّلات، حتى أصبحت "العراق" و"بغداد" و"السرى"، و"البصرة" من أشهر البلدان فى العلم والأدب، والحديث والتاريخ. وقد زار "المقدسى" إقليم "العراق" فى عهد بنى بويه، وقال فى إثر رحلته : "وإن إقليم العراق إقليم الظرفاء، ومنبع العلماء، أخرج "أبا حنيفة" فقيه العلماء، و"سفيان" سيد القراء، ومنه كان "أبو عبيدة" و"الفراء" ...إلخ.

وإذا تتبعنا ما قاله رجال هذه الدولة من الشعراء، خرجنا بالكثير كما أشار إلى ذلك "الثعالبى" فى الجزء الثانى من اليتيمة.

وكان "عضد الدولة" مشاركاً فى عدة فنون من الأدب، كما عنى بهذه الناحية أشد العناية، فقرب إليه العلماء والكُتّاب، وأحسن وفادتهم، فقصده فحول الشعراء فى عصره

---

(١) عصر الدول والامارات الجزيرة العربية – العراق – ايران ص٢٣٤ .

"كالمتنبى"، و"السلامى" وغيرهما، وكان مجلسه لا يخلو من العلماء والأدباء، يباسطهم ويباحثهم، كما كان "تاج الدولة بن عضد الدولة" من أكثر "آل بويه" أدباً، وعلماً وشعراً[1].

و"ابن العميد" الأديب المعروف كان وزيراً لـ "ركن الدولة"، و"ابن عباد" كان كاتباً عند "ابن العميد"، ولأجل تلمذته لـ "ابن العميد" وصحبته له سُمّى بالصاحب، وظل "الصاحب" يكتب لـ "ابن العميد" فى "السرى" ثم اختاره "ابن العميد" ليكون مربياً لـ "مؤيد الدولة بن ركن الدولة"، وولى عهده، وكان إقامته فى "أصفهان"، ثم اصبح وزيراً لـ "مؤيد الدولة".. وكان "ابن العميد" إلى جانب علمه الغزير فيلسوفاً، وقد قصده "المتنبى" وقال فيه :

من مبلغ الأعرابى أنـــى بعـــدهم ∴ شاهدت أرسطاليس والإســكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبـــه ∴ متملكـــاً متبـــدياً متحضـــرا
ولقيت كـــل الفاضـــلين كأنمـــا ∴ رد الإلـــه نفوســـهم والأعصـــرا

والصاحب "ابن عباد" كان متبحراً فى العلوم الشرعية، واللسانية، والأدبية... ومن أشهر شعراء هذه الدولة "ابن نباتة السعدى"، والقاضى "على بن عبد العزيز الجرجانى" ومن أشهر أدبائها "أبو حيان التوحيدى"[2].

---

(١) دراسات فى الأدب العباسى ص٨٨ وما بعدها – بتصرف – د/ عبد قناوى.
(٢) تاريخ الأدب العربى ما بين المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٥٧ وما بعدها بتصرف .

الدولة السلجوقية

السلاجقة : شعبة من الأتراك الغز ، الذين أخذوا يغيرون بقيادة راعيهم "سلجوق" على حدود "إيران" الشمالية والشرقية[1].

وقد اعتنق "سلجوق" الإسلام السنى، وكذلك قبيلته، وقد دعاهم السلطان "محمود الغزونى" إلى الإقامة فى الأقاليم المحيطة ببخارى، ولكنه توجّس منهم خيفة، ولذلك أمر بالقبض على "إسرائيل بن سلجوق" وحبسه حتى الموت، وبعد أن توفى "محمود" فكر السلاجقة فى الثأر ، فانقضُّوا على "بخارى"، وهزموا جيوش "مسعود بن محمود"، وأعلن "طغرلبك" ملكاً على "خراسان" سنة ٤٣٠هـ، ودانت له "مرو"، و"نيسابور"، وبعد أن توفى "مسعود" سنة ٤٣٢هـ تمكنوا من الاستيلاء على بقية "خراسان"، و"طبرستان"، و"سجستان" وأخذ "طغرلبك" يولى أبناء أسرته وأقاربه على البلاد، واتّخذ الرى حاضرة له، واستنجد به الخليفة "القائم بأمر الله" أن يضبط له "بغداد"، فدخلها سنة ٤٤٧هـ.

وخلع عليه الخليفة خلعاً سنية، وأجلسه على العرش إلى جواره، وألبسه خلْعة فاخرة، و"طغرلبك" هو أول ملوك الدولة السلجوقية، وكان شجاعاً مقداماً ، كريماً حليماً حريصاً على أداء واجباته الدينية، ومات سنة ٤٥٥هـ، فخلفه ابن أخيه "ألب أرسلان" ولقب بـ "الملك العادل"، ويقال: إنه أول من لقب بالسلطان من بنى سلجوق، وذكر على منابر بغداد، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً، واستولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق، وقاد حملات ضد دولة الروم الشرقية، وأسر إمبراطورها "رومانوس" سنة ٤٦٢هـ، ودمّر فى هذه الموقعة الجيش الرومى تدميراً.

ووزيره "نظام الملك" كان حصيفاً، وسياسياً حكيماً، محباً للعلم، وقد بعث فى دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم "المدارس النظامية"، واستقدم لها العلماء وفى مقدمتهم "أبو إسحاق الشيرازى"، و"الغزالى"، وغيرهما من كبار العلماء، وخلف

---

(١) عصر الدول والإمارات ص٢٣٦ – د/ شوقى ضيف – دار المعارف سنة ١٩٩٠م

"ألب أرسلان" حين توفى سنة ٤٦٥هـ "ملكشاه" ابنه، وقد ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين، فامتدت مملكته، واشتملت على جميع بلاد ما وراء النهر، و"إيران" و"العراق"، و"بلاد الروم"، و"الجزيرة"، و"الشام"، وكان من أحسن الملوك سيرة، وكذلك وزيره "نظام الملك".

وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات، وتوفى ببغداد سنة ٤٨٥هـ وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام.

وخلفه ابنه "مركياروم"، وكان أخوه السلطان "سنجر" نائبه على "خراسان"... وأخيراً ضعف البيت السلجوقى بعد انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت "ملك شاه" فقد تولى صغار أبنائهم عرش الدولة؛ مما أدى إلى ضياعها، وذلك حين تدافقت جيوش التتار إلى البلاد بقيادة "هولاكو" الذى اجتاح "الموصل"، وهاجم "بغداد"، وأصبحت "العراق" فى حوزة التتار.

ظهور الآداب القومية ومدى تميزها فى الأقاليم المختلفة

فى ظلال هذه الدول، وبتشجيعها نشأت الآداب القومية، التى تمثل حياة الأمة التى نبع من ضميرها هذا الأدب، ويصور كل منها: الحياة فى الإقليم الذى نشأ منه ويعيش فيه، ويتأثر به بتاريخ الأمة وبيئتها، وما يرى فى مواطنها من مشاهد ومناظر، وأخلاق وعادات، وعلوم وثقافات. وقد نشأت الآداب القومية بعد انقسام الدولة العباسية إلى دويلات؛ لأن الأدباء فى كل إقليم صرفوا همهم إلى مدح أمرائهم، ووصف بيئتهم والتحدث عما حولهم، مما كان سبباً فى ظهور هذه الآداب الخاصة بكل إقليم، والتى سُمّيت باسم "الآداب القومية".

وهذه الآداب القومية التى نشأت فى أقاليم الخلافة لم تتباعد كثيراً؛ لاتحاد ممالك الخلافة فى الدين، واللغة، والثقافة، والأخلاق، ولكثرة الهجرات والرحلات بينها ولاتحاد مصادر الثقافة فيها، وقد ذكر "الثعالبى" فى "يتيمة الدهر" أن "الصاحب" حين إقامته ببلاد "فارس" كان معجباً بأدب أهل الشام، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم

ويستملى الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من بدائعهم، وطرائفهم، وجمع له من ذلك دفتراً ضخم الحجم لا يفارقه، ولا يمل مطالعته، وكان لذلك آثار واضحة فى محاضراته، وفى أدبه: شعره، ونثره.

ويروى "ياقوت" فى "معجم الأدباء" أن "الصاحب بن عباد" سأل رجلاً طرأ عليه من الشام عن الرسائل التى يتدارسها الناس فى بلاده، فأجابه: إنها رسائل "ابن عيدكان" ورسائل "الصابئ"، والأول من كتاب "ديوان القاهرة"، والثانى من كتاب "الديوان" ببغداد ويروى "ياقوت" أيضاً أن "ابن خيران" - وهو من كتّاب "مصر" فى زمن الفاطميين أرسل بمجموع رسائله إلى "بغداد"، ليعرضها على "الشريف المرتضى" كى يودعه فى دار العلم هناك لمن يريد مطالعته من الأدباء.

وقد ارتقى الأدب القومى فى "مصر" بعد الانقسام، وكسر استخدامه فى وصف البيئة المصرية، ومناظر البلاد الطبيعية، ونيلها ومزاراتها، وخيراتها، وآثارها، وفى مدح الخلفاء الفاطميين، والإشادة بهم، وبدعوتهم، وفى وصف الحفلات والمواسم والأعياد التى أكثر منها الفاطميون: إرضاء للمصريين، كعيد "وفاء النيل"، وعيد "المولد النبوى الشريف"، وأول العام الهجرى إلى غير ذلك.

وفى الشام فى عهد "الحمدانيين" ظهر الأدب القومى، وأخذ يصف بيئة الشام ومناظرها، وجمالها، وثلوجها، وجداولها، وفاكهتها، وينطق بمدح أمراء "بنى حمدان" والإشادة بكرمهم، وشجاعتهم، وأدبهم خاصة "سيف الدولة"، ويصف الحروب التى كانت تنشب بين "سيف الدولة" و"الروم"، محرضاً على خوض غمارها، واستخلاص المدن والأسرى من أيدى الأعداء، كما كثر فى الفخر والحكمة والفلسفة، ونشأ كذلك أدب قومى فى "فارس" و"العراق" فى ظلال البويهيين والسلجوقيين، أكثر من وصف البيئة والتحدث عن التاريخ، وأغرق فى مدح الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء، كما أكثر من الفخر والحكمة والفلسفة.

ب - الحياة الاجتماعية وأثرها في الأدب:

الأدب دائماً صورة المجتمع، نرى فيه كل ملامح هذا المجتمع، من غنى أو فقر ونعيم أو شقاء، كما نرى عادات هذا المجتمع وتقاليده، وأنماط معيشته من خلال ما خلفه لنا من أدب.

ولقد كانت حياة المجتمع الإسلامي في عصر الدويلات معقدة الملامح، متشابكة الاتجاهات، متفاوتة الطبقات، مختلفة الأجناس واللهجات[1].

فقد كان المجتمع في "بغداد"، و"العراق" يتألف من ثلاث طبقات: طبقة أرستقراطية على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم، ويتلوها حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين، ويدخل في هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصنّاع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة، وطبقة دنيا هي طبقة العامة من الزرّاع، والخدم، والرقيق، وأصحاب الحرف ويسلك أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين عادة، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث في عهد عضد الدولة.

وكانت الطبقة الأولى تعيش في رخاء، بل ترف؛ لكثرة ما كان يصبُّ في حجورها من أموال عن طريق الضرائب المتعددة.

وكانت نساء الخلفاء وجواريهم يبالغن في زينتهن، كما بالغ الخلفاء في بناء القصور وعمارتها، وتحولت قصورهم إلى ترف ما بعده ترف.

وإذا كان الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة، فقد كان يتنفسها معهم الوزراء والسلاطين والأمراء. وبدون ريب كان يعيش هذه العيشة المترفة التي لا تخلو من حمر وعير حمر كبار القواد. ورؤساء الدواوين والإقطاعيين، وكبار التجار والموظفين[2].

ومن مظاهر الرفاهية كثرة المغنيات في مجالس السلاطين، والخلفاء، والثراة، وعلْية

---

(١) تاريخ الأدب العربي ما بين عهد المتوكل وتحول الفرنسيين مصر ص٤١.
(٢) عصر الدول والامارات - الجزيرة العربية - العراق - ايران ص٢٥١ : ٢٥٦ بتصرف.

القوم.

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية، والمظلومون – أو الطبقة الوسطى – كانت تنعم به بعض الشئ ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعموا به فى الأعياد العامة.

ومن المحقق أن العامة كانت تعانى كثيراً من الضنك، والضيق لكثرة الضرائب التى كانت تُجبَى منها، وقلة ما كان عليها من الكسب، وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة. وكان من أجناس مختلفة، فمنه الإفريقى، ومنه التركى الآسيوى، ومنه الأوربى، وكانت له سوق رائجة فى "بغداد" من قديم... وكانت الجارية المغنية تباع بأغلى الأثمان... واشتهر كثيرات من الحوارى باللطف، والظرف، والبديهة الحاضرة. ونظم الشعر، وحب الأزهار. ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام، والعصائب والمناديل، وكان لذلك تأثير فى رقى الأذواق ببغداد.

وأدى انتشار مجالس الخمر إلى كثرة وصفها على ألسنة الشعراء، وخاصة الماجنين وعلى رأسهم "أبو حجاج"، و"ابن سكرة".

وكانت لهذه الحياة الاجتماعية صداها فى أدب هذا العصر : شعره ونثره، ويضيق المقام عن ذكر كل ما صوّره الأدب لملامح الحياة الاجتماعية، ولذا سنكتفى ببعض الأمثلة :

فهذا "عمارة اليمنى" يصور مظاهر الترف فى بناء القصور والدّور فى مصر الفاطمية فيقول فى دار "طلائع بن رزيك" الوزير الفاطمى :

فمثل داراً شيدتها همة ∴ يغدو العسير ببابها متيسرا

جملتها وتجملت مصر بها ∴ لما علت بك عزة وتكبرا

لم يبد فيه الروض إلا مزهرا ∴ والنخل والرمان إلا مثمرا

أنشأت فيها للعيون بدائعا ∴ زفت فأذهل حسنها من أبصرا[1]

ويصور "عبد الوهاب المالكى" الشاعر الفقيه ضيق ذات يده، وقلة ما عنده- على الرغم من هذا الترف الذى كان ينعم به الخلفاء ومن والاهم، فيقول:

سلام على بغداد فى كل موطن ∴ وحق لها منى سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها على قلى لها ∴ وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علىّ بأسرها ∴ ولم تكن الأرزاق فيها تتاعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه ∴ وأخلاقه تنأى به وتخالف

ويصور "الشريف الرضى" حبه للجوارى السوداوات، ويدافع عن لون السواد فيقول:

أحبك يا لون الشباب فأننى ∴ لأيتكما فى العين والقلب توأما
سوديون القلب لو كان رفعة ∴ بجبهته أوشتى فى وجهه فما
سكنت سواد القلب ذا كنت مثله ∴ فلم أدر من عز من القلب منكما
وما كان سهم العين لولا سواده ∴ ليبلغ حبات القلوب إذا رمى

وقال "السرى الرفاء" فى وصف القصور والمنازل:

مجلس فى فناء دجلة يرتاز ∴ إليه الخليع والمستور
طائر فى الهواء فالبرق يسرى ∴ دون أعلاه والحمام يطير
فإذا الغيم سار سيل منه ∴ حلل دون حدره وستور
وإذا غارت الكواكب صبحا ∴ فهو الكوكب الذى لا يغور[2]

---

(١) تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٤٣ .
(٢) المنتخب من أدب العرب ١٣٩/١ .

وقال يصف ضيق الرزق، وأن حرفته لم تدرّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه:

قد كانت الإبـــرة فيمـــا مضـــى ∴ صـــائتة وجهـــي وأشـــعاري

فأصـــبح الـــرزق بهـــا ضـــيقاً ∴ كأنـــه مـــن ثقبهـــا جـــاري [1]

وقال "ابن رزيق" في وصف حاله، وشكوى أيامه، وترحاله وراء الرزق، مخاطباً زوجه وباكياً على نفسه:

لا تعزليه فـــإن العـــزل يولعـــه ∴ قد قلت حقاً ولكن ليس يســـمعه

فاستعملي الرفق في تأنيـــه بـــدلاً ∴ من عنفه فهو مضنى القلب موجعـــه

تـــأبى المطالـــب إلا أن تكلفـــه ∴ الرزق سعياً ولكن ليس يجمعـــه

(١) عصر الدول والامارات – الجزيرة العربية – العراق – إيران : د/ شوقي ضيف ص٣٦٣ .

جـ - الحياة العقلية وأثرها في الأدب

لقد استمرّت الحركة العلمية ناشطة فى أوائل العصر، وقبل الغزو التّترى بقيادة "هولاكو" الذى اجتاح "بغداد"، وحاول طمث الحياة العلمية بإلقاء الكتب فى النهر وعبورهم عليها بخيولهم، حتى تغيَّر لون الماء من كثرة الكتب الملقاة فى الماء، وهكذا شأن الاستعمار فى كل زمان ومكان.

فقد كان هناك نظام "الكتاتيب"، يتعلّم فيه الصّبية القرآن الكريم، والشّعروالحساب وكان الصّبية يتحوّلون إلى المساجد حيث تغصّ المساجد يومذاك بحلقات العلماء. والأدباء فقد كانت المساجد جامعة تشبه جامعاتنا الحالية فى نشر العلم، ومنذ القرن الرّابع الهجرى ظهرت بجانب المساجد دُور للعلم، وتلحق بها مكتبات ضخمة، مثل "دار العلم" التى أسّسها الوزير "سَابُورين" سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة (٣٨٣هـ) بمدينة "الكرخ" وتقع غربىّ "العراق". ووقفها على العلماء، واشترى لها كتباً كثيرة.

وحين خُلقت لها الدولة "السّلجوقيّة" دولة "بنى بُويه"، وأصبح الوزير "نظام الملك" ومدير الحكم فى زمن "ألب أرسلان" السّلجوقىّ، فقد عُنى ببناء المدارس فى "العراق" و"إيران"، وكان لازدهار العلوم، والفنون أثر كبير فى نشاط "الورّاقة" - يعنى باعة الكتب وكانوا يقومون مقام أصحاب المطابع فى العصر الحاضر [١].

وقد بلغت الحركة العلمية، والفلسفية، أوْجَها فى القرن الأول من هذا العصر وهو قرن العلماء من أمثال "ابن سينا"، و"البيرونى" فى "إيران"، و"ابن الهيثم" فى "العراق" وقد ظلّت التّرجمة ناشطة فيه، وانصبّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة، وتظلّ "بغداد"، ومدن "العراق" ناشطة فى المباحث اللغوية، والنحوية والبلاغية، والنّقدية. ومن الكتب اللّغوية المهمة كتاب "التنبيهات على أغلاط الرواة" لمؤلفه "على بن حمزة البصرىّ" المتوفى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة للهجرة (٣٧٥هـ).

---

(١) راجع عصر الدول والإمارات - للدكتور/ شوقى ضيف ص٢٧٦، وما بعدها بتصرف.

وقد كثرت شروح الشعر والنثر فى هذا العصر منذ أوائله، مثل : شرح "ابن جنى" لديوان "المتنبى"، ويعدّ "التبريزى" من أكثر شرّاح الشّعر آثاراً، ومن شروح "مقامات الحريرى" شرح "القاسم بن القاسم الواسطى"، وشرح "البكرى" النحوى شارح المتنبى"[1].

وعلى أية حال فقد ازدادت موضوعات العلوم فى عصر الدويلات، أعنى "العصر العباسى الثانى"، حيث ظهرت علوم السّياسة والعمران، وتدبير الممالك والمنازل، وفنون الحرب، وعلم "الفلك، والطب، والحكمة" وغير ذلك[2].

ولقد كان من آثار هذه النهضة: كثرة عدد العلماء فى كلّ علم وفنّ، كثرة مفرطة ولافتة للنّظر أهّلت هذه الكثرة فيما بعد لتأليف كتب فى التراجم، وكانت كلّ مجموعة على حدة، فقد كانت هناك كتب "الفقهاء"، وكتب "المفسّرين"، وكتب للقرّاء، وكتب للنّحاة وكتب للأطباء، إلى غير ذلك من المؤلفات فى كلّ فنّ من الفنون، وفى شتى ألوان المعارف، كما وصفت كتب عامّة مثل "معجم الأدباء" لـ "ياقوت الحموى"، و"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان" لـ "ابن خلّكان".

وتمضى الحركة العلمية فى نشاطها فى "العراق" إلى أن يكتسحه "قطعان المغول" وكان ذلك فى منتصف القرن السّابع الهجرى، حيث إنهم قوّضوا صَرْحها فى "بغداد" وفى غيرها[3].

وقد كان للحركة العلمية فى هذا العصر أبلغ الأثر فى ترقية الفكر والخيال والوجدان، ورقة معانى اللغة، وما استنبطه مجتهدوا المذاهب، وابتدعه علماء الكلام والفلاسفة والأطباء من أمثال "الباقلانى"، و"الغزالى"، و"الفخر الرازى"، و"الفارابى" و"ابن سينا"، و"أبى بكر الرّازى"، وما ابتدعه الشعراء من أمثال "المتنبى"، و"أبى العلاء المعرّى" فى الشّعر وما افترعه واخترعه "ابن العميد"، و"الصابئ"، و"بديع الزّمان الهمزانى"

---

(١) عصر الدول والامارات – للدكتور/ شوقى ضيف ص٣٧٦، وما بعدها بتصرف.
(٢) محاضرات فى تاريخ الأدب العربى – للدكتور المرحوم / أحمد منصور نقادى ص٣٧١.
(٣) عصر الدول والامارات "مرجع سابق" ص٢٨١ وما بعدها.

و"الخوارزمى"، و"الحريرى" فى الكتابة[1].

وبعد ما أخذ سلطان العرب والعربية يتراجع فى الشرق هبّ أحفاد الأكاسرة يستردّون مُجُود أجدادهم، ويطاردون اللغة وما لها من نفوذ فى بلادهم، وطلبوا إلى الشعراء من أمثال "الفرزدق"، و"الدّقيقى" أن يجدّدوا مفاخر الأسلاف، وذلك بتأليف المنظومات القصصيّة، والأناشيد القوميّة، ومن الغريب العجيب أن ذلك الأمر تمّ لهم سريعاً، فإن "المتنبى" وهو من القرن الرّابع الهجرى يقول وقد زار شعب "بوان" من بلاد "فارس":

مغنى الشّعب طيباً فى المغنى ∴ بمنزلة الرّبيع من الزّمان

ولكن الفتى العربىّ فيها ∴ غريب الوجه واليد واللّسان

ملاعب جنّة لو سار فيها ∴ سليمان لَسار بترجمان

ثم اقتدى بالفُرس فى ذلك "الأتراك" و"الأكراد"، بَيْد أن اللغة العربية بقيت فى حِمَى القرآن الكريم، تدافع سيل التركية الجارف، وقد عزّ النّصير من أهلها، حتى غلب "التّتار" على "بغداد" مدينة العلم والمعرفة، ومصدر الإشعاع الثقافى يومذاك، فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر الغلاب بعد ما خلفت فى تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقدر الأيام على محوها[2].

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأدب العربى – للدكتور المرحوم أحمد منصور نعادى ص٣٧.

(٢) تاريخ الأدب العربى – للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٢٣٦ وما بعدها.

الحياة الروحية وأثرها فى ازدهار حركة التصوف الإسلامي

تيار الزهد لم يكن من ابتداع العصر العباسى، إذ يمكن تتبع أوله إلى عهد الرسول ﷺ وهذا يوضح لنا أن الزّهد نمط سلوكىّ إنسانىّ.. يؤدى إليه التكوين النفسى لبعض الأفراد من جهة. وتساعد عليه الظروف الاجتماعية من جهة أخرى فالناس بحكم تكوينهم النفسى منهم الانبساطى المتفتح للحياة، والْمُقْدِم عليها فى فهم ومنهم الانقباضى العازف عن الحياة، الزاهد فيها المنطوى على نفسه. ومنذ ظهور الإسلام يعد الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم، زهد فى طيبات الحياة ومتاعها، وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه وتعبده لربه، وبين السعى لرزقه، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً. ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، وهو يضع ثقته فى الله، ويتوكل عليه حق التوكل، ولا يرى فى سعيه لكسب قُوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة.

وأخذت تتسع موجة الزهد مع العصرين: الأول والثانى العباسى، وظلت حادة فى هذا العصر، ولا شك أنها كانت أحد وأكثر اتساعاً وجمهوراً، بل جماهير من موجة اللهو والمجون، فقد كانت هذه تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة فى الأمة. أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة، وجمهور و جماهير الأمة. إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله، وتذكره ليلاً ونهاراً وكان يغذى هذه الروح وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم.

لقد كثر الوعاظ والنساك الذين ينهون الناس عن ارتكاب المنكرات والمعاصى ويدفعون الناس دفعاً إلى الزهد فى الحياة ومتعها وخيراتها، وكان لهم فضل كبير فى سريان هذه الروح، كما كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل. فسيرهم تفوح دائماً بشذى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها.

وقد جاء أدب الزهد فى الدنيا كثيراً فى أدب المتصوفة، كما غصَّت به مؤلفاتهم وكان حديث الزهد من مقدمات التصوف الإسلامى، وبخاصة الزهد فى الدنيا، وقد جاءت صور الزهد متعددة، وكثيرة متنوعة، نسوق طرفاً منها يمثل هذا اللون من الأدب لدى الصوفية، مما نجده لدى "ابن القيم الجوزية"، حيث يقول: "مثلت الدنيا بمنام، والعيش فيها بالحلم، والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة، والعمل فيها بالبذر، والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان، باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون منه، ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون، وضربتها الموت، ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم، طيب الرائحة من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه، ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذى"[1].

ومن ألوان النثر الأدبى الصوفى، وهو أدب الزهد فى الدنيا: أنه قيل لـ "رابعة القيسية العدوية": "لو كلمت رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً يكفيك مهمة بيتك؟ قالت "رابعة": "والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها"[2].

ومن شعراء الزهد: "الحلّاج"، و"الشلى"، و"ابن الفارض"، وغيرهم كثير، ونكتفى بأنموذج للحلاج..

---

(١) عدة الصابرين: لابن القيم الجوزية ص٣١٦.
(٢) البيان والتبيين: للجاحظ ١٢٧/٣.

الحلاج
نشأته وحياته

مولده:

ولد "أبو المغيث الحسين بن منصور محمى البيضاوى" فى قرية "الطور" فى الشمال من مدينة "شيراز" على نحو ثلاثين كيلومتراً ، فى حوالى سنة ٢٤٤هـ- ٨٥٧م.

و"البيضاء": مدينة مشهورة بفارس، وهى أكبر مدينة فى كورة "اصطخر"، وسُميت هذه المدينة "البيضاء" – كما يقول ياقوت فى معجمه – لأنها قلعة تبين من بعيد ويرى بياضها، وكانت معسكراً للجند الإسلامى، يقصدونها فى فتح "اصطخر"، وأما اسمها بالفارسية "انسايك" البيضاء ضد السوداء فى عدة مواضع منها. مدينة مشهورة بفارس. قال "حمزة": "وكان اسمها أيام الفرس: "دراسفيد"، فعربت بالمعنى".

وقال "الاصطخرى": "البيضاء أكبر مدينة فى كورة "اصطخر"، وإنما سميت البيضاء، لأنها قلعة تتبين من بُعد، ويُرى بياضها، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها فى فتح "اصطخر"، وأما اسمها بالفارسية "انسايك". من أبنائها الأعلام "سيبويه النحوى"[١]

نسبه:

هو "الحسين بن منصور الحلاج"، ويكنى "أبا مغيث"، وقيل: "أبا عبد الله"، ويلقب بـ "الحلاج"، أو حلاج الأسرار، وقد ذكر صاحب "العبر" أن كنيته هى "أبو عبد الله"[٢]. أما كنيته المشهورة "أبو المغيث" أو "أبو مغيث" فهى مذكورة فى معظم المصادر التاريخية الأخرى.

ويروى "ابن خلكان" فى "وفيات الأعيان"[٣]، عن "ضمرة بن حنظلة السماك" أنه قال:

---

(١) معجم البلدان – لياقوت الحموى ٥٢٩/١ دار صادر – بيروت.
(٢) العبر فى خبر من غبر – للذهبى – تحقيق: فؤاد سيد – طبعة الكويت ١٣٨/٢ وما بعدها.
(٣) وفيات الأعيان – لابن خلكان.

"دخل الحلاج "واسط"، وكان له شغل، فأول حانوت استقبله كان لقطان، فكلفه الحلاج السعي في إصلاح شغله، وكان للرجل بيت مملوء قطناً، فقال له الحسين: اذهب في إصلاح شغلي، فإني أعينك على عملك، فذهب الرجل، فلما رجع رأى كل قطنه محلوجاً، وكان أربعة وعشرين ألف رطل، فسمي من ذلك اليوم "الحلاج"، ولازمته هذه الكنية طول حياته".

وقد أورد "ابن كثير" هذه الرواية أيضاً، وأضاف رواية أخرى تقول: إن أهل الأهواز أطلقوا عليه هذه التسمية؛ لأنه كان يكاشفهم بما في قلوبهم، فسموه "حلاج الأسرار"[1]

ويقول المستشرق "ماسينيون": إن البقعة التي ولد فيها كانت من أعظم مناطق النسيج في الإمبراطورية الإسلامية، وأن والده كان من عمال النسيج، ولهذا سمي حلاجاً وهو استنساخ فكري من "ماسينيون" لم يقم عليه دليل، ولا شاهد من التاريخ[2].

والذي أميل إليه هو التوقف في الرأي الذي رواه "ابن خلكان"؛ إذ أن ذلك ليس في مقدور البشر، بينما أطمئن إلى رأي "ابن كثير" من أن إطلاق كنية "الحلاج" عليه إنما جاء من مكاشفته للناس بما في قلوبهم، خاصة أن كراماته تعددت ألوانها، واختلفت صورها فكان يُخرج للناس فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وكان يخرج من جيبه دراهم مكتوب عليها: "قل هو الله أحد"، وكان يسميها "دراهم القدرة"، مما ساعد على ذيوع صيته، وغلبة هذه التسمية عليه، وهي "الحلاج".

وتُقدِّم لنا دائرة المعارف الإسلامية روايتين متناقضتين عن نسبه:

- فالرواية الأولى: تصعد به إلى أبي أيوب الأنصاري، الصحابي الجليل، وبذلك تجعله عربياً خالصاً.
- وتقول الرواية الثانية: إنه حفيد مجوسي من أبناء فارس، يُدعى "محمياً".

والرواية التي تنسبه إلى الأنصار لم تثبت تاريخاً، ولم يقل بها مؤرخ عربي، بل

---

(١) البداية والنهاية – لابن كثير ١١/١١٣.
(٢) الحلاج – لطه سرور – طبعة أولى – القاهرة – سنة ١٩٦١م ص١٧٦.

أجمع رجال التاريخ على أنه فارسى الأصل، كما أنه فارسى المولد[1].

نشأته :

نشأ الحلاج بواسط، وصحب "الجنيد"، و"النورى"، و"عمرو بن عثمان المكى"، وفى مختصر "ابن الوردى" أنه قال[2]: "قدم "الحلاج" من "خراسان" إلى "العراق"، ثم إلى "مكة" وأقام سنة الحجر لا يستظل بسقف، يصوم الدهر، ويفطر على ماء وثلاث عضات من قرص، ثم قدم "بغداد" متزهداً متصوفاً. يخرج للناس فاكهة الشتاء فى الصيف وبالعكس، ويمد يده فى الهواء ويعيدها مملوءة دراهم أحدية يسميها "دراهم القدرة"، ويخبر الناس بما أكلوه وما صنعوه فى بيوتهم، وبما فى ضمائرهم فاعتقد القوم فيه الحلول – وحاشاه عن ذلك.

ويقول المستشرق "ماسينون"[3]: "اختار الحلاج "سهلاً التسترى" على عجل ليقرأ عليه ويتعلم التصوف على يديه، وتركه وهو فى العشرين، وارتحل إلى "البصرة". حيث كان الموالى الحارثية فى "البيضاء" قد تحالفوا مع "بنى المهلب الأزديين"، وذلك ليلتقى فيه الخرقة الصوفية من يد "عمرو المكى"، وفى الوقت نفسه الذى ارتدى فيه الخرقة تزوج بـ "أم الحسين بنت أبى يعقوب الأقطع البصرى"، ولم يتزوج بغيرها. واستمر زواجهما موفقاً حتى النهاية. فأنجبا ثلاثة أولاد وبنتاً واحدة على الأقل، وكان يكفل لهؤلاء معاشهم بفضل صهره وهو "كرنبائى"، وهذا الزواج الذى أثار غيرة "عمرو المكى" – جعل "الحلاج" يقيم فى البصرة فى "حى تميم"، من قبيلة "بنى مجاشع"، التى كان "الكرنبائيون" من مواليهم، كما كانوا سياسياً حلفاء للفتنة الزيدية التى أثارها "الزنج"، وكان العهد عهد حروب الأرقاء الذين تأثروا بعض التأثر بالبدعة الشيعية المغلية.

ويظهر أن دخوله فى هذه القبيلة كان هو الأصل فيما اشتهر عنه دائماً بأنه نزاع إلى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثامن ١٧/١.

(٢) ترجمة الأولياء فى الموصل الخضراء – لأحمد بن الخضر الموصلى – حققه ونشره. سعيد الديوه – حى مدير متحف الموصل – مطبعة الجمهورية – الموصل – سنة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م وما بعدها.

(٣) شخصيات قلقة فى الإسلام لماسينيون – ترجمة: د/ عبد الرحمن بدوى ص٦٣ وما بعدها.

الثورة، ومن هنا كان القبض عليه للمرة الأولى.

والحق أن "الحلاج" قد احتفظ من هذه المعاشرة لتلك القبيلة بتغيرات ذوات مظهر شيعي في دفاعه عن مذهبه، ودعوته، بيد أنه استمر يعيش في "البصرة" بين أسرته عيش الزاهد المتحمس ذي النزعة السنية دائماً، فكان يصوم رمضان كله دائماً، وكان في يوم عيد الفطر يلبس السواد، ويقول: "هذا لباس من يرد عليه عمله"، وهو موقف نفسي غريب ونوع من الدلال في الخشوع لله، ولما أن استمرت الخصومة بين شيخه، وصهره "الأقطع" وقد صبر عليها مدة طويلة؛ اتباعاً لنصيحة "الجنيد" الصوفي المشهور، وكان "الحلاج" قد ذهب لاستشارته في "بغداد"، فأعنته الإمرة، فارتحل إلى "مكة"، ويلوح أن هذا الرجل كان في الوقت الذي أخمدت فيه فتنة الزنج، وقضي عليها نهائياً، مما أكد عند "الحلاج" هذا اليقين – وهو أن وحدة الأمة الإسلامية لا يمكن أن تتم عن طريق الحرب الدنيوية، لكن عن طريق الصلوات، والتضحيات في حياة الزهد والمجاهدة – فوصل إلى مكة لأداء فريضة الحج لأول مرة .. هناك نذر نفسه للبقاء عاماً للعمرة في حرم البيت العتيق، وهو في حالة صوم، وصمت دائمين، اقتداء بـ "مريم" التي فعلت هذا – حسبما يقوله القرآن – استعداداً لميلاد كلمة الله فيها. وهذا سهم مريش، يحاول تسديده ماكر خبيث هو المستشرق "ماسينيون" إلى نحو المتصوفة المسلمين عامة، وللحلاج على وجه الخصوص.

فعلى عادة المستشرقين ومن نسج على منوالهم من تلامذة الاستشراق في "مصر" وفي غيرها جعل الأتباع يرددون كالببغاء ما يقوله أسيادهم – وهم أهل الفكر الصائب من وجهة – ومن هؤلاء الأسياد "ماسينيون"، الذي عمل حثيثاً على أن يدس السم في العسل وحاول ما استطاع أن يجعل زهد "الحلاج" وصومه، واعتكافه بالبيت العتيق، إنما كان على نمط "مريم البتول" – عليها وعلى ابنها السلام – وواضح أن يريد نسبة التصوف الإسلامي إلى الرهبنة المسيحية عن طريق غير مباشر، مستشراً وراء القرآن قائلاً حسبما يقوله القرآن ولم لا يكون فعل "الحلاج" هذا اقتداء بالأسوة الحسنة، والنبي العظيم سيدنا محمد ﷺ في زهده وتقشفه. واعتكافه في العشر الأواخر من رمضان بعيداً عن ضوضاء

الناس، وعجيج الكون، وتلك سُنّة محمدية، وشريعة إسلامية ما تزال قائمة بين المسلمين إلى اليوم وحتى تقوم الساعة.

إنه يريد أن يقول : إن التصوف الإسلامى مرجعه إلى المسيحية، وإنه لكذب وافتراء واختلاق من عند نفسه، فالتصوف إسلامى لحمة ودماً، أما الرهبنة المسيحية فالإسلام لا يعترف بها، ومن ثم يقول ﷺ :

"لا رهبانية فى الإسلام"، فالرهبانية قسوة وتطرف، والتصوف الإسلامى دين ودنيا ولم يقل إن "الحلاج" استمد ذلك من دعوة القرآن للزهد فى الدنيا، والإعراض عن بهرجها الكذاب، وزخرفها الباطل، وزينتها الزائلة، وسرابها الخادع.

قال تعالى : -

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ..... ﴾ (١).

وقال تعالى : -

﴿ .....وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢).

وقال تعالى : -

﴿ .....قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (٣)

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة الواردة فى هذا الشأن.

وما أكثر هؤلاء الذين يريدون للتصوف الإسلامى أن يكون امتداداً للرهبنة المسيحية ولكن دعاواهم تتحطم على صخرة التصوف الإسلامى الشامخة الثابتة كالطود العظيم.

ولما عاد "الحلاج" من "مكة" إلى "الأهواز" بدأ الوعظ فى الناس، مما أثار حفيظة الصوفية عليه. فنبذ خرقة الصوفية كيما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا خاصة الكتاب، ورجال

---

(١) سورة الحديد : الآية (٢٠).
(٢) سورة الحديد الآية (٢٠).
(٣) سورة النساء : الآية (٧٧).

الأعمال وهم جمهور مثقف، غير كليل الحد ومبال للشوك.

وبعض هؤلاء – سنيون من أصل آرامي، أو إيراني، أو نصارى دخلوا الإسلام وتخرجوا في المدارس النسطورية بدير "قنا". وتقلدوا مناصب الوزارة في بغداد، وقد أصبحوا من أنصار "الحلاج"، وبعضهم كان من المعتزلة والشيعة، وهؤلاء الأخيرون كانوا من كبار موظفي الخراج – "كابن الفرات"، و"ابن نوبخت" وقد أثاروا شغب العامة ضد "الحلاج"، واتهموه بالشعوذة والاحتيال بالمعجزات الزائفة، كتوزيع الأغذية والدراهم على الفقراء.

ثم استأنف "الحلاج" أسفاره، فقام ثانية برحلة كبرى أبعد من الأولى إلى بلاد الهند حيث "المانوية"، و"البوذية" بالتركستان، فوصلها بطريق البحر، وصعد في "نهر السند" وذلهب من ملتان إلى "كشمير"، ومضى في طريقه صاعداً ناحية الشمال الشرقي، حتى طرفا "ماسين" مع القوافل الأهوازية، التي كانت تحمل إلى تلك الأصقاع الديباج المنسوج في طراز "تستر" وتعود منها إلى بغداد بالورق الصيني الجميل، المعروف بورق "ساسور" الذي سيطر عليه تلاميذ "الحلاج" في مؤلفاته.

من هناك عاد إلى مكة حاجاً للمرة الثالثة والأخيرة، ولما قفل عائداً من مكة إلى "بغداد"، أقام في بيته كعبة مصغرة، وفي الليل كان يصلي عند القبور، خاصة "قبر ابن حنبل"، وفي النهار يظل يلقى على قارعة الطريق في العاصمة بالأقوال الغريبة وفي سنة ٢٩٦هـ٩٠٨م انفجرت مؤامرة إصلاحية دبرها أهل السُّنة، واتهم فيها "الحلاج" بالتواطؤ وأمر بالقبض عليه فنجا "الحلاج" و"الكرنبائي"، وذهبا ليختفيان في بلدة "سوس" بالأهواز وهي مدينة حنبلية، وبعد ثلاث سنوات من تفتيشات الشرطة عنه بقيادة أحد الحوبة وبتعضيد أحد السُّنيين الكارهين له، وهو "حامد" عامل "واسط" قُبض على "الحلاج"، وحين به إلى "بغداد" حيث ابتدأت قضيته النهائية التي استمرت تسع سنوات، وهي المحنة الحاسمة في تاريخ رسالته [1]. ويقول صاحب "روضات الجنات": "إنه كان يتردد على بلاد

(١) شخصية قلقة في الإسلام لماسينيون – ترجمة: د/ عبد الرحمن بدوي – ص٧١، ٧٢ بتصرف.

"خراسان" وما وراء النهر و"سجستان" و"فارس"، ويظهر لهم الدعوة وكان يدعى عندهم بـ "أبى عبد الله" الزاهد، ثم لما رجع إلى "الأهواز" نطقوا عنه بـ "حلاج الأسرار"؛ لكثرة ما كان يخبر عن ضمائرهم، إلى أن أصبح لفظ "الحلاج" لقباً على التدريج"[1].

وقد روى محقق ديوان "الحلاج" بعض ما يتعلق بنشأته وأسفاره، ورحلاته فقال:

"نزلت الحلاج "واسط" فى حقبة كانت تغلى بالحروب الداخلية، ثم قصد هو إلى "تستر"، وهى "شوستر" الإيرانية على نهر "كارون"؛ ليحب "سهل بن عبد الله التسترى" أحد كبار الصوفية فى القرن الثالث الهجرى (ت: ٢٨٣هـ- ٨٩٦م)، وتنقل "الحلاج" بين شيوخ التصوف المزامنين له حتى وصل إلى "بغداد"، ليأخذ عن "الجنيد" البغدادى شيخ الطائفة الصوفية لأيامه (ت: ٢٩٨هـ- ٩١٠ - ١١م) لكن هذا لم يقبله قبولاً حسناً؛ لثقة "الحلاج" المفرطة بنفسه، ومبالغته فى ممارسة الرياضات النفسية والجسدية.

ثم قصد "الحلاج" مكة حاجاً، ثم عاد منها إلى "الأهواز" بالقرب من موطنه القديم واعظاً، فلم ينجح النجاح المطلوب، وجعل يتنقل بين "خراسان" و"فارس" و"العراق" ليُلقى عصا الترحال فى "بغداد".

لكنه رحل عنها ثانية بعد أترك أسرته فيها حاجاً للمرة الثانية، ولم يعد إليها مباشرة بل قصد إلى الهند والصين فى رحلة طويلة، جدد فيها أفكاره الصوفية، وراض نفسه على التصوف الهندى. ثم عاد إلى "بغداد" ليستقر فيها ابتداء من نحو سنة ٢٩١هـ- ٩٠٣م، وله من العمر ست وأربعون سنة"[2].

ولنترك أقرب الناس جميعاً إلى "الحلاج" يقص علينا تاريخه وحياته، وتنقلاته إلا وهو "أحمد بن الحسين بن منصور" ابن الحلاج، حيث يقول:

"مولد والدى "الحسين بن منصور" بالبيضاء، فى موضع يقال له "الطور"، ونشأ بـ "تستر"، وتتلمذ لـ "سهل بن عبد الله التسترى" سنتين، ثم صعد إلى "بغداد"، وكان

---

(١) روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات - مخطوط بدار الكتب المصرية.
(٢) مقدمة ديوان الحلاج - د/ كامل مصطفى الشيبى سنة ١٩٧٣م.

فى بعض الأوقات يلبس المسوح، وفى بعضها يمشى بخرقتين مصبغتين، ويلبس فى أحيان أخرى الدراعة والعمامة، ويمشى بالقباء أيضاً على زى "الجنيد". وأول ما سافر من "تستر" إلى "البصرة"، كان له ثمانى عشرة سنة، ثم خرج بخرقتين إلى "عمرو بن عثمان المكى" وإلى "الجنيد بن محمد". وأقام مع "عمرو المكى" ثمانية عشر شهراً، ثم تزوج بوالدتى "أم حسين بنت أبى يعقوب الأقطع"، ولم يتزوج غيرها، وكان حسن المعاشرة لها، وتغير "عمرو بن عثمان المكى" من تزوجه بأمى، وجرى بينه وبين أبى يعقوب وحشة عظيمة لذلك السبب، ثم اختلف والدى إلى "الجنيد" الشيخ والأستاذ "للحلاج" المريد والتلميذ، ثم خرج إلى مكة وجاور سنة متعبداً، ورجع إلى "بغداد" مع جماعة من الفقراء الصوفية.

هنا أصبح "للحلاج" جماعة يلتفون حوله، ويأخذون عنه الطريقة الصوفية، فقصد "الجنيد بن محمد"، وسأله عن مسألة فلم يجبه، ونسبه إلى أنه مدّع فيما يسأله، فاستوحش وأخذ والدتى ورجع إلى "تستر"، وأقام نحواً من سنة، ووقع له عند الناس قبول عظيم حتى حسده جميع من فى وقته، وكان هذا سر كراهية الفقهاء، ورجال الحكم مما أدى إلى قتله مصلوباً"[1].

ولم يزل "عمرو بن عثمان المكى" يكتب الكتب فى بابه إلى "خوزستان". ويتكلم فيه بالعظائم حتى جرد ورمى بثياب الصوفية ولبس قباء. وأخذ فى صحبة أبناء الدنيا، ثم خرج وغاب عنا خمس سنين، وبلغ إلى "خراسان" وما وراء النهر، ودخل إلى "سوجستان"، و"كرمان". ثم رجع إلى "فارس" فأخذ يتكلم على الناس، ويتخذ المجلس ويدعو الخلق إلى الله، وكان يعرف بفارس "بأبى عبد الله الزاهد"، وصنف لهم تصانيف ثم صعد من "فارس" إلى "الأهواز"، وكان يتكلم عن أسرار الناس وما فى قلوبهم، ويخبر عنها .. ثم خرج إلى "البصرة". وأقام مدة يسيرة، وحلقنى بالأهواز عند أصحابه، وخرج ثانية إلى "مكة" ولبس المرقعة والفوطة، وخرج معه فى تلك السفرة خلق كثير ثم كثرت الأقاويل بعد رجوعه من هذه السفرة، فقام وحج ثالثاً وجاور سنين، ثم رجع

---

(١) طبقات الصوفية – للسلمى ص ١٥٧ – ط: القاهرة – سنة ١٩٥٣م.

وتغير عما كان عليه فى الأول، واقتنى العقار "ببغداد"، وبنى داراً، ودعا الناس إلى معنى لم أقف إلا على شطر منه حتى خرج عليه "محمد بن داود"، وجماعة من أهل العلم وقبحوا صورته، ووقع بينه وبين "الشبلى" وغيره من مشايخ الصوفية، فكان يقول قوم: إنه ساحر، وقوم إنه مجنون، وقوم يقولون: إنها كرامات، فاختلفت الألسنة فى أمره حتى أخذه السلطان وحبسه[1].

فى نهاية هذا العرض الذى تناول مسيرة الحلاج صوفياً وزاهداً، ورحّالة دؤوباً وواعظاً ملتزماً، وسياسياً ثائراً، أميل إلى الاعتقاد بأن ما ورد فى بعض كتب التراث من طعن فى شخصية "الحلاج" قد يرجع إلى تعاطف مع أعدائه على كثرتهم من خصوم سياسيين، أو حُسّاد صوفيين، أو فقهاء متحاملين، ولكن "الحلاج" كان صوفياً زاهداً، عالماً ذا معارف وكرامات، شهد له بها أهل عصره، والذين زامنوه من فطاحل الصوفية "كالغزالى"، و"أبى عباس المرسى" وغيرهم.

وقال "ابن شريح" – أحد فقهاء السّلف: "أما أنا فأراه – أى الحلاج – حافظاً للقرآن، عالماً به، ماهراً فى الفقه، عالماً بالحديث، والأخبار، والسُّنة، صائم الدَّهر، قائماً الليل، يعظ، ويبكى، ويتكلم بكلام فلا أفهمه. فلا أحكم بكفره".

وما أعدل "ابن سريج"، وما أحكمه فالحكم بالكفر لا يكون إلا بتيقن ذلك من المحكوم عليه به، وكيف يكون ذلك التيقُّن مع عدم فهم الكلام، الذى به الحكم، والحكم على الشئ فرع عن تصوُّره[2].

ذلكم هو الصوفى الذى شهد بولايته بعض الناس، ويكفّره آخرون، لمخالفته فى الظاهر للشريعة فى بعض أقواله وأعماله، التى صدرت منه وهو فى حال الأخذ والشَّطح، وقد علّق على ذلك هو نفسه، فقال للشيخ "على بن مردويه": "خذ من كلامى ما يبلغ إليه علمك، وما أنكره علمك فأعرض عنه، ولا تتعلّق به فتضل عن الطريق.

---

(١) الخطيب البغدادى ٨/١١٢ : ١١٤

(٢) أخبار الحلاج – تقديم وتعليق: عبد الحميد محمد مدنى هاشم ص٥ – شركة الطباعة الفنية سنة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م ص٥

وقال "لإبراهيم بن قاتك" – أحد محبيه: – "يا بنيَّ، إن بعض الناس يشهدون عليَّ بالكفر، وبعضهم يشهدون لي بالولاية، والذين يشهدون عليَّ بالكفر أحب إليَّ، وإلى الله من الذين يُقِرُّون بالولاية"، ثم يبين ذلك فقال: "لأن الذين يشهدون لي بالولاية من حُسْن ظنهم بي، والذين يشهدون عليَّ بالكفر – يشهدون تعصُّباً لدينهم، ومن تعصَّبَ لدينه أحَبُّ إلى الله ممن أحسن الظنَّ بأحد"[1].

ولا ريب أن "الحلاج" رحمه الله لم يكن صوفياً عادياً، يسير على المنهاج الصوفي المقرَّر في سائر أحواله، بل كان له أحوال خاصَّة تحوَّل إليها بعامل تفكُّره الجوَّال بعمق في صفات الله – تعالى – وآياته، وكان يرى السَّعادة في أنَّه يرى الله – تعالى – في كلِّ شئ يراه أو يسمعه، لا يرى غيره – تعالى – في الوجود نغماً يجري لسانه إلا ما كان ثابتاً بقلبه، وهو الله ومدبره، فما كان يذكر سواه – جل علاه – وكان يقول:

نسمة من جنابه ... أوقفتني ببابه

❖❖❖❖

يا عوضي من عوضي ∴ وصحتي من مرضي
تجلى لي فأحياني ∴ بكأس ماله ثاني

❖❖❖❖

ذكرتك لا أني نسيتك سيدي ... وأيسر ما في الذكر ذكر لسان
ذكره ذكري، وذكري ذكره ... هل يكون الذاكران إلا معا[2]

ويقول:

أنا حسين الحلاج ∴ أيش تكره من حالي
أنا حلجت قطني ∴ بذكر ذي الجلال

---

(١) أخبار الحلاج – تحقيق: عبد الحفيظ محمد مدني ١٣٩٠هـ-١٩٧٠ ص٦.
(٢) أخبار الحلاج – تحقيق: عبد الحفيظ محمد مدني ١٣٩٠هـ-١٩٧٠ ص٦، ٧.

ومكانة "الحلاج" فى حبه لباقى السماوات، وداحى الأرضين معصورة سـ وسلوكه. وفى بيانه ومنه قوله :

لقـــد أعجبنـــى الوَجْـــد ∴ بمـــن أهـــواه والفقـــد
فـــلا بُعْـــد ولا قُـــرب ∴ ولا وصـــل ولا صـــدّ
ولا فـــوق ولا تحـــت ∴ ولا قَبْـــل ولا بَعْـــد
ولا عـــرف ولا نكـــر ∴ ولا يـــأس ولا وعـــد
فهـــذا منتهـــى ســـؤلى ∴ وهـــو الواحـــد الفـــرد [1]

وفاته :

يروى محقق ديوان "الحلاج" أن الدولة العباسية كانت تعانى من خطر السقوط على يد "القرامطة"، الجناح العسكرى للحركة الفاطمية الإسماعيلية، وقد ألقى القبض على "الحلاج" سنة ٣٠١هـ - ٩١٣م، بعد مراقبة من الشرطة دامت سنتين بتهمة القرمطة. وشهر فى "بغداد" معلّقاً محل مدة ثلاثة أيام، تصحاً له وتعزيراً، ولما أثبت التحقيق أنه كان لحسابه خيف من قتله، وثورة أنصاره، فسجن فى دار السلطان فى بناية شُيّدت خصّيصاً له وسُمح للناس بزيارته فى سجنه، ففاز بإعجاب الكثيرين، وفى أثناء القحط والمجاعة. وخطر الدولة الفاطمية، وارتفاع الأسعار، وكسر السجون، وإحراق الجسور، وسقوط الوزراء وعزل الخليفة مرتين وجد الوزير "حامد بن العباس" أن قتل "الحلاج" قد يشغل الناس ويخفف من التوتر الاجتماعى والسياسى، ويُلقى الرُّعب فى قلوب المعارضين داخلاً وخارجاً. فقُدّم "الحلاج" للمحاكمة بعد تحرش بأعوان الوزير، وشُكّلت المحكمة من قاضى القضاة المالكى "أبى عمرو الحماوى" رئيساً، و"أبى جعفر البهلول" و"أبى الحسين الأسدى" القاضيين الحنفيين "بالرصافة" و"الكرخ" من "بغداد" عضوين، ولم يحضر الجلسة أحد من الشافعية. ولا من الحنابلة الذين كانوا خصوم الدولة وأنصار "الحلاج"، وصدر حكمه

---

(١) المرجع السابق ص٧

بإعدام "الحلاج" على الصورة التى نُفِّذت فى أسرى "القرامطة" وجواسيسهم، فضُرِب ألف جَلدة، ثم قُطعت أطرافه الأربعة، وضُربت عنقه، وأُحْرِقت جثته، ثم ذرى رماده فى "دجلة"، ثم حُمِل رأسه إلى "خراسان"؛ لأنه كان له بها أصحاب، ثم حرقت كُتُبه وأُخِذ من الورَّاقين عهد بعدم تداولها، وطُورِد أنصاره ثلاث سنين، وقُتل عدد منهم [1].

والذى أراه من خلال هذا أن إعدام "الحلاج" كان سياسياً، والهدف من قتله تورط الدولة العباسية، والخطر الذى أحاق بها من شتى النواحى، وأحاط بها من جميع المناحى خاصة الغلاء وما فيه من بلاء.

وأما التفاف المريدين حول "الحلاج" وكثرة أنصاره ومريديه، ومن اعتنقوا مذهبه رأت الدولة أنه مصدر خطر عليها، ومنبع قلق لحكامها الذين شُغلوا بملذّاتهم، والجرى وراء شهواتهم عن مصالح الشعب، فكان ذلك سبباً فى كثرة أنصار "الحلاج" فى كل صقع وفى كل بلد نزلها، مما دفع الحُكّام لبناء سجن خاص به.

وهناك أمر آخر يُرينا أن قتل "الحلاج" كانت دوافعه سياسية وليس غيرة على الدين أو خشية الفتنة من جرّاء ما تلفّظ به الصوفى الزاهد "الحسين بن منصور الحلاج"، وهو فى حالة سُكر وغيبوبة من فرط الوجد، واضطرام نار الجوى فى أضلاعه، وتعلّقه بالحب الإلهى، والشّوق إلى الوصل والمشاهدة والمكاشفة، وهذا السبب هو موافقة فقهاء المالكية والأحناف دون الشافعية والحنابلة، فعدم موافقتهم على إهدار دمه وحضور جلسة الحكم إنما هو استنكار لما حلَّ به وأصابه من سجن وتعذيب.

ودليل ثالث على أن قتل "الحلاج" كان خوفاً من الخطر الذى شكّله على الدولة وحُكّامها، وهو اتّباع المنهاج الدينى. وهو ما يخشاه كلُّ سلطان يحيد عن الجادة، ويجرى وراء تحقيق أطماعه الدنيوية، والانغماس فى لذائذ الحياة ومتعها، منصرفاً عن الآخرة غير ملتزم بالمنهج السوى المستقيم – منهاج المولى تبارك وتعالى – وإلا فما الذى دفع هؤلاء إلى حمل رأسه – وهو غاية فى البشاعة، والتمثيل، والغلظة، وقسوة القلب فضلاً عن

---

(١) ديوان الحلاج – جمع وتحقيق: د/ كامل مصطفى الشيبى ص١٣

عدم مراعاتهم لكرامة الآدمى على وجه العموم – كما قال تعالى : -

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ .....﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠]

إلى "خراسان" بحجة أن "الحلاج" له بها أصحاب وأنصار ، إذ الغرض من ذلك هو إرهاب أتباعه ومطاردتهم حتى تتمكن الدولة من قتل أفكاره ومنهجه بعد قتله هو وحتى يعيش الحكام فى أمن وطمأنينة من "الحلاج" ومنهجه الصوفى الداعى إلى الزهادة فى الدنيا والعمل للآخرة.

والدليل على أنهم أرادوا قتل فكره ، ومنهجه فى الحياة أيضاً بعد زواله هو إحراق كتبه ، وأخذ تعهد على الورّاقين بعدم تداولها ، وكل ذلك كان من دوافع السيطرة والحفاظ على أمن الدولة ضد الدين وأصحابه ، وإلا "فالحلاج" عندما قُدِّم للمحاكمة قال لهم : "ظهرى حمى ، ودمى حمى . ولى كتب لدى الورّاقين ألفتها ، فى الكتاب والسُّنة . ودينى الإسلام . واعتقادى بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء"

ومع ذلك وقّع الفقهاء فتواهم بجواز إراقة دمه . وتلك وصمة عار فى جبين هؤلاء الفقهاء الذين أصدروا فتاواهم بجواز قتله ، وإهراق دمه خاصّة بعد إعلانه أمامهم جميعاً بأن الإسلام دينه ، ومحمداً – عليه الصلاة والسلام – نبيّه ورسوله

وتروى دائرة المعارف الإسلامية أن مدة السجن التى قضاها "الحلاج" بلغت ثمانى سنوات ابتداءً من سنة ٣٠١هـ ، وكان ذلك فى سجن "بغداد" ، وأن محاكمته بأمر الوزير "حامد" استمرت سبعة أشهر[١] ، وكانت وفاته فيما تقول "دائرة المعارف" فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى القعدة عام ٣٠٩هـ ، الموافق السادس والعشرين من مارس عام ٩٢٢م . وكان ذلك فى ساحة السجن الجديد فى "بغداد" على الضفة اليمنى لنهر "دجلة" أمام "باب الطاق" .

ويقول صاحب "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال" : إن قتله كان سنة إحدى عشرة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية – المجلد الثامن ١٧/٢

وثلاثمائة سنة ٣١١هـ[١]. والأرجح أن قتله كان سنة تسع وثلاثمائة، حيث إن الروايات التى ذكرت مقتله فى هذه السنة متواترة، أو تكاد وليست هناك رواية تذكر فى مقتله فى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة لا هذه الرواية التى ذكرها "الذهبى" فى كتابه "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال". ولذلك تُعدّ ضعيفة، لا يُعتدّ بها فى تاريخ وفاة "الحلاج" المجمع على وفاته فى سنة ٣٠٩هـ تسع وثلاثمائة من الهجرة النبوية.

ثقافته وفكره، ومؤلفاته

أولا: ثقافته :

لقد كان "الحلاج" رحب الأفق، ذا ثقافة عالية، رفعته إلى مصافّ كبار الأساتذة والمعلمين، ولعل ذلك راجع إلى تطوافه بالبلاد، ومخالطته لصفوة من العلماء، وتلمذته – قبل أن يتصدّر الوعظ والتعليم والإرشاد – على أعلام الصوفية النجباء، ومن أبرزهم "أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى". وكان "سهل ابن عبد الله التسترى" فيما يروى صاحب الرسالة القشيرية[٢]: صاحب كرامات، ولقى "ذا النون المصرى" بمكة سنة خروجه إلى الحج، ولم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع، وقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن ستع سنين، وكان يُسأل عن دقائق الزهد، والورع، وفقه العبارة وهو ابن عشر فيحسن الإجابة.

وقد قرأ "الحلاج" على "سهل بن عبد الله التسترى"، وتعلّم على يديه التصوّف ولكنه لم يلبث أن تركه وهو فى العشرين من عمره، وارتحل إلى البصرة حيث تزوج بنت "أبى يعقوب الأقطع" البصرى، وأنجب منها ثلاثة أبناء وبنتاً، وقد أثار هذا الزواج غيرة أستاذ آخر من أساتذة "الحلاج"، هو "عمرو بن عثمان المكى"، الذى مات بعد داد سنة

---

(١) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال – تأليف أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى – تحقيق على محمد البجاوى – القسم الأول – دار احياء الكتب العربية – عيسى الحلبى – الطبعة الأولى – ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م – ص٥٤٨ – رقم الترجمة ٢٠٥٩.

(٢) الرسالة القشيرية – تحقيق الإمام المرحوم عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف – دار الكتب الحديثة – القاهرة – سنة ١٩٧٢م ص١٠٤.

٢٩١هـ (١).

كنه التصوف:

التصوف: حركة دينية انتشرت فى العالم الإسلامى عقب اتّساع الفتوحات وازدياد الرخاء الاقتصادى؛ كردّ فعل مضادة للانغماس فى التّرف الحضارى، مما حمل بعضهم على الزهد الذى تطوّر بهم حتى صار لهم طريقة مميزة معروفة باسم "الصوفية". إذ كانوا يتوخّون تربية النفس، والسموّ بها؛ بُغْيَة الوصول إلى معرفة الله بالكشف والمشاهدة لا عن طريق التقليد أو الاستدلال، لكنهم جنحوا فى المسار بعد ذلك، حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة[٢].

والتصوف فى حقيقته إيثار وتضحية، تضحية باللذائذ والشهوات، وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للآجل، مجاهدة للنفس، ومغالبة لأهوائها

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى، والتّسامى والمعرفة، عن طريق الكشف الرّوحى. أو العلم اليقينى الناشئين عن الإلهام الإلهى، والنظر العقلى، والرياضة النفسية، وبعض الدلائل الحسيّة [٣].

والتصوّف روح لمجموع حقائق الإسلام، من عبادة، وإيمان، ويقين، وعرفان[٤].

وهو إيثار الحق على رغبات النفس، يقول الإمام "الجنيد": "التصوّف: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به". ويقول "معروف الكرخى": "التصوف: هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق". ويقول "أبو الحسن الشاذلى": "هو تدريب النفس على العبودية، ورَدّها لأحكام الربوبية".

وسُئل أحد الصوفية عن معنى التصوف، فقال: "التصوف معناه: أن العبد إذا تحقق بالعبودية، واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر البشرية، فنزل منازل الحقيقة

---

(١) الرسالة القشيرية – تحقيق: الإمام المرحوم عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف ص١٥٠.
(٢) التصوف الإسلامى – احمد توفيق عياد – الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.
(٣) المدخل الى التصوف الإسلامى – تأليف: محمود أبو الفيض المنوفى ص٩.
(٤) ذاته ص١٠

وأخذ بمكارم الشريعة، فإن فعل فهو صوفي".

والصوفي – كما يقول "السري" :- "أحد ثلاثة: واحد لا يطفئ نور ورعه نور معرفته، وواحد لا يتكلم بباطن في علم ينقده عليه ظاهر من الشرع، وواحد لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله"[1].

ويقول شاعر الإسلام "محمد إقبال": "إن الإسلام يأخذ عن الصوفية طابعاً من الجمال، والكمال والإنسانية العالية، والأخوة العالية لا نجده في إسلام الفقهاء والمتكلمين"[2].

ويقول "الطوسي" عن الصوفية: "إنهم معدن جميع المعلومات، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، وهم مع الله – تعالى – في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة"[3].

ويقول الإمام "الغزالي" عن طريق الصوفية: "إنها قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله – تعالى – وتخليته بذكر الله"[4].

ويقول "ابن تيمية" في رسالته عن الصوفية: "الصوفي هو من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر".

ويقول "الجنيد": "الصوفي كالأرض يطرح عليها قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح". ويقول أيضاً: "إنها كالأرض يطأها البارّ والفاجر، وكالسّحاب يُظل كل شئ". ويقول أيضاً: "إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهره، فاعلم أن باطنه خراب".

ويقول "الشبلي": "الصوفي منقطع عن الخلق، متصل بالحق"[5].

---

(١) الرسالة القشيرية – للإمام ابي القاسم عبد الكريم القشيري – تحقيق: الدكتور / عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ص١٢٨ وما بعدها.
(٢) اللمع للطوسي – مقدمة الكتاب ص٩ – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، وطه سرور.
(٣) ذاته ص٤٠.
(٤) المنقذ من الضلال للغزالي.
(٥) الرسالة القشيرية – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ط٢ ص٥٥٢، ٥٥٤.

كقوله تعالى :-

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [1].

وقال أيضاً: "الصوفية أطفال في حجر الحق – سئل ذو النون المصري عن أهل التصوف فقال: هم قوم آثروا الله – عز وجل – على كلّ شئ، فآثرهم الله – عز وجل – على كلّ شئ". وسُئل ذو النون المصري عن الصوفي فقال: "من سمع السماع وآثر الأسباب، وهي فعل المأمورات، وترك المنهيات"[2].

○ نشأة التصوف الإسلامي وأبرز الشخصيات:

ذهب "ابن الجوزي البغدادي" (ت ٥٧٩هـ) إلى أن الصوفية نسبة إلى رجل يقال له "صوفة". واسمه "الغوث بن مر"، ظهر في العصر الجاهلي.

وذهب "البيروني" قديماً و"فون هامر" حديثاً إلى أن الصوفية إنما هي اشتقاق من "سوفيا" اليونانية، والتي تعني "الحكمة"، وهذا رأي يدعم موقف القائلين بأن التصوف الإسلامي إنما هو وليد الفلسفة الأفلاطونية.

- وقيل: الصوفية من "الصوف"، لاشتهارهم بلبسه.
- وقيل: من "الصفّة" صفّة مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم.
- وقيل: من "الصفاء".
- وقيل: من "الصف الأول".
- يقول "أبو سعيد الخراز": "الصوفي: من صفّا ربه قلبه نوراً. ومن دخل في عين اللدة بذكر الله"
- ويقول "أبو محمد الجريري" (ت ٣١١هـ): "التصوف: هو الدخول في كلّ خُلُق سنيّ. والخروج من كلّ خُلُق دنيّ".
- ويقول "أبو بكر الكتاني" (ت ٣٢٢هـ): "التصوف: خلق، فمن زاد عليه في الخلق

---

(١) سورة طه من الآية رقم (٤١).
(٢) الرسالة القشيرية – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ط٢ ص٥٥٥

زاد عليك في الصفاء". ويقول كذلك : "التصوف: صفاء ومشاهدة".

- ويقول "جعفر الخالدى" (ت ٣٤٨هـ): "التصوف: طرح النفس فى العبودية والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكليَّة".
- ويقول "الشبلى": "التصوف: بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده". ويقول أيضاً: "التصوف: الجلوس مع الله بلا هم، أى ملازمة طاعة الله"[1].
- ويقول "القشيرى" صاحب "الرسالة القشيرية": "الورع: ترك الشبهات".

---

(١) الرسالة القشيرية – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ط٢ ص٥٥٤.

ومن شخصياتهم المشهورة :

- "رابعة العدوية" المتوفاة سنة ١٣٥هـ، و ١٨٠هـ، أو ١٨٥هـ، وقد جمعت بين الزهد والحب، أو ما يسمُّونه "بالعشق الإلهي"، كما أنها ساهمت في إثراء الأدب الصوفي.
- ومنهم "إبراهيم بن أدهم" (ت ٦١٦هـ) حيث إنه ترك الملك والسلطان، وأقبل على الزهد والتصوف.
- وكذلك "سفيان الثوري" (٩٧ – ١٦١هـ) من العلماء الزهاد، يقول: "الزهد في الدنيا: هو قصر الأمل، وليس بأكل الخشن، ولا بلبس العباء".
- ومنهم "ذو النون المصري" (ت ٢٤٥هـ) من مدرسة الزهد، ينحدر من أصل قبطي أو نوبي، هو أوّل من مهّد لظهور مذهب المعرفة في التصوف، حيث يقول: "عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي".
- "أبو القاسم الجنيد" (ت٢٩٧هـ) أصله من "نهاوند"، ولد ونشأ بالعراق، وهو تلميذ "الحارس المحاسبي"، يقول: "التصوف: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به". وقد سُئل عن قوم من أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات، من باب البر والتقرب إلى الله – عز وجل – فقال: "إن هذا قول قوم تكلّموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن من الذي يقول هذا".
- "أبو يزيد البسطامي" (ت ٢٣٤هـ، أو ٢٦١هـ)، كان جده مجوسياً، وأبوه من أتباع زرادشت، روي بأنه ذهب إلى رجل مقصود مشهور بالزهد، فشاهده يرمي بصاقه تجاه القبلة، فانصرف عنه، ولم يسلّم عليه قائلاً: "هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه".
- "أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج": (ت ٢٤٤ – ٣٠٩هـ)، ولد بفارس حفيداً لرجل زرادشتي، ونشأ في "واسط" بالعراق، وهو أشهر الحلوليين والاتحاديين ومي بالكفر، وقُتل مصلوباً لتهم أربع وجهت إليه:

١ – لاتصاله بالقرامطة

٢ – لقوله : "أنا الحق" .

٣ – لاعتقاد أتباعه بألوهيته.

٤ – قوله فى الحج ، حيث يرى بأن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أداؤها.

فى شخصيته كثير من الغموض ، فضلاً عن كونه متشدداً وعنيداً ومغالياً ، له كتاب "الطواسين" الذى أخرجه وحققه "ماسينيون".

- "أبو حامد الغزالى" : الملقَّب بحجة الإسلام (٤٥٠- ٥٠٥هـ)، ولد "بطوس" من إقليم "خراسان" ، رحل إلى "جرجان" و"نيسابور" ، ولازم "نظام الملك" ، درس فى المدرسة النظامية ببغداد ، واعتكف فى منارة مسجد "دمشق" ، ورحل إلى القدس ، ومنها إلى الحجاز ، ثم عاد إلى موطنه ، وقد أُلف عدداً من الكتب ، منها : "تهافت الفلاسفة" و"المنقذ من الضلال" ، وأهمها "إحياء علوم الدين" ، ويعد "الغزالى" رئيس مدرسة الكشف فى المعرفة ، ومن جليل أعماله هدمه للفلسفة اليونانية ، وكشفه لفضائح الباطنية.
- "أبو الفتوح شهاب الدين السهرودى" (٥٤٩ – ٥٨٧هـ): وُلد "بسهرود" بـ "إيران" نقل كثيراً ، صاحب مدرسة الإشراق الفلسفية ، التى أساسها الجمع بين آراء مستمدة من ديانات "الفُرس" القديمة ومذاهبها فى ثنائية الوجود ، وبين الفلسفة اليونانية فى صورتها الأفاطونية الحديثة ، ومذهبها فى الفيض أو الظهور المستمر. وقد حوكم وقُتل بفتوى من علماء "حلب" بـ "سوريا" ، من كتبه : "حكمة الإشراق" ، و"هياكل النور" ، و"التلويحات العرشية" ، و"المقامات".
- "محى الدين بن عربى" الملقب "الشيخ الكبير" (ت ٥٦٠ – ٦٣٨هـ): رئيس مدرسة وحدة الوجود ، يعتبر نفسه خاتم الأولياء ، وُلد بالأندلس ، ورحل إلى "مصر" وحج ، وزار "بغداد" ، واستقر فى دمشق ، حيث مات ودُفن ، وله فيها الآن قبر

يُزار، طرح نظرية الإنسان الكامل التي تقوم على أن الإنسان وحده من بين المخلوقات يمكن أن تتجلى فيه جميع الصفات الإلهية، إذا تيسر له الاستغراق في وحدانية الله.

وله كتب كثيرة يصل بعضهم بها إلى ٤٠٠ كتاب، ورسالة ما يزال بعضها محفوظاً بمكتبة يوسف أغا بقونية، ومكتبات تركية أخرى. وأشهر كتبه "روح القدس" و"ترجمان الأشواق"، وأبرزها "الفتوحات المكية" و"نصوص الحكم".

- "أبو الحسن الشاذلي" (٥٩٣ – ٦٥٦هـ): وهو صاحب "الطريقة الشاذلية"، من أقواله: "إنا لنتظر إلى الله ببصائر الإيمان والإتقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان".
- الأقطاب الأربعة: "عبد القادر الجيلاني"، و"أحمد الرفاعي"، و"أحمد البدوي" "وإبراهيم الدسوقي".
- ومنهم الفيلسوف الفرنسي "رينيه جينو" الذي أسلم وتصوف في أوروبا، وسمى نفسه "عبد الواحد يحيى". وقد دافع عن الروحانية الإسلامية، مبيناً سموّ التصوف الإسلامي – على حسب رأيه – من كتبه "أزمة العالم الحديث". و"رمزية الصليب". و"الشرق والغرب".

وحركة الزهد والرهبنة والتبتل إلى الله – عز وجل – في كثرة كاثرة من الأديان السماوية القديمة، كما كانت موجودة في الديانات الوثنية، ومن البلاد التي عرفت بذلك من قديم الزمان حتى يومنا هذا "الهند"، التي ما تزال على وثنيتها من عبادة الأبقار.

والزهد هو المعنى العام للتصوف الإسلامي، أما التصوف بمعناه الخاص فهو إسلامي خمة وسدى.

يقول "القشيري": "أما بعد رضي الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضّلهم على الكافّة من عباده بعد رُسله وأنبيائه – صلوات الله وسلامه عليهم – وجعل قلوبهم معادن أسراره. واختصّهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغيث للخلق والمدارون في عموم أحوالهم مع الحق، بالحق صفّاهم من كدورات البشرية، ورفعهم

إلى محالّ المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منّه – سبحانه – لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله – تعالى – بصدق الافتقار، ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه – جل وعلا – يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، وثوابه ابتداء فضل، وعذابه به حكم عدل وأمره قضاء [1].

ويقول "الهراوى": "اعلموا – رحمكم الله – أن شيوخ هذه الطائفة – ويعنى "الصوفية" – بنوا قواعدهم على أصول صحيحة فى التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السُّنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القم، وتحققوا بما هو نعت الوجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة "الجنيد" – رحمه الله – : "التوحيد هو : "إفراد القدم من الحدث"، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد"[2].

فالقرآن الكريم مشرع التصوف بآيته الباعثة على التقوى والآمرة بالإخلاص واليقين والتوكّل وحسن العبودية لله وغير ذلك، وتلك الآيات تشغل من القرآن الكريم ما يقارب نصف مجموعه، والباقى فى تشريع العبادات والمعاملات وقصص السالفين: لتكون عبرة وذكرى للمتذكرين، ولكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[3].

ففى قوله – تعالى – : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .....﴾ [4]

---

(١) الرسالة القشيرية.
(٢) عوارف المعارف للسهروردى.
(٣) المدخل إلى التصوف الإسلامى للمنوفى.
(٤) سورة مريم: الآية (٣٠).

وفى قوله – تعالى : -

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (١).

وفى قوله – تعالى - :

﴿.....لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ .....﴾ (٢).

وفى قوله – سبحانه - :

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (٣)

وفى قوله – تعالى - :

﴿.....إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا.....﴾ (٤)

أى العلماء بالله . وفى قوله:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ (٥)

وفى قوله – عز وجل :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٦).

---

(١) سورة الكهف : الآية (٢٨)
(٢) سورة ق : الآية (٣٧)
(٣) سورة آل عمران الآية (١٩٠ ، ١٩١)
(٤) سورة فاطر الآية (٢٨)
(٥) سورة الفرقان (٦٣ ، ٦٥) .
(٦) سورة فصلت (٣٠)

وفى قوله :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

ففى قوله : ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

وفى قوله :

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (٢)

وفى قولهتعالى – "عبادى"، و"يحبهم ويحبونه"، و"رضى الله عنهم ورضوا عنه" وسائر الآيات التى تذكر المحسنين والصادقين، والقانتين. والمخبتين، والصابرين والراضين، والمتوسمين.

وسائر الآيات أيضاً التى ورد فيها قوله – تعالى : - .....

﴿ ..... أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[سورة المجادلة: الآية ٢٢]

وقوله تعالى : -

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣) .

وجميع الآيات القرآنية الواردة فى كتاب الله – عز وجل – والتى تحث على النظر فى خلق السماوات والأرض، وفى الأنفس كقوله تعالى : -

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة العنكبوت : الآية (٦٩) .
(٢) سورة الحديد : اية رقم (٣) .
(٣) سورة الحجرات : أية (١٣) .
(٤) سورة الذاريات : أية (٢١) .

وقوله تعالى : -

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ "(١).

وكذلك الآيات الواردة فى الآفاق، وفى الكون جميع ذلك يدل دلالة حاسمة على أن التصوف الإسلامى مقبوس ومستمد من كتاب الله – عز وجل – وسنة رسوله ﷺ ويذهب المستشرق "ماسينيون" إلى أن التصوف دخيل على الإسلام، فيقول: "إن علماء الإسلاميات حائرون فى السُّنة، ومن ثمَّ ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه".

ولم يذكر المستشرق "ماسينيون" مَن علماء الإسلاميات الذين دار بينهم الخلاف ولو عالماً واحداً، كما أنه لم يسق دليلاً على دعواه.

أما المستشرق "ماركس" يقول: "إن التصوف الإسلامى مأخوذ من رهبانية التام خاضع للروحانية المسيحية". وذلك منطق لم يُعرف إلا من "ماركس" وأمثاله، الحاقدين على الإسلام، والذين يراهم يردون دائماً أن الإسلام عقيدة جافة تنأى عن الروحانية، فلما ووجهوا بالتصوف الإسلامى وما فيه من روحانيات وزهد وورع، واتصال بالملكوت الأعلى عن طريق الكشف والمشاهدة، تعالت صيحاتهم المحمومة الحقدة أن التصوف الإسلامى مقبوس من الرهبنة المسيحية.

ويذهب المستشرق "جونس" إلى أن التصوف الإسلامى وثنى، حيث إن فلسفة اليونان وثنية، وكذلك الفلسفة الفارسية.

ويذهب "نيكلسون" إلى أن الزهّاد المسلمين – ويعنى بهم الصوفية – قد تشبهوا برهبان النصارى فى لبس الصوف. وحذى حذوه فى هذا الزعم المستشرق "ماسينيون"[٢] ويدعى "نيكلسون" أن التصوف الإسلامى قد تكون من تأثيرات خارجية غير إسلامية. وهى

---

(١) سورة عبس، آية (٢٤).

(٢) التصوف الإسلامى عند المستشرقين – العدد ٢٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة ص١٤.

المسيحية، والأفلاطونية الحديثة، والبوذية، وأنه ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام، وأن الراقد الأصيل لحب الله عند الصوفية منتزع من المسيحية [1].

وهنا يفرّق "نيكلسون" بين حركة الزهد كحركة إسلامية خالصة، نشأت فى بيئة الإسلام الأولى، وترعرعت فى ظلاله، ولذلك لم تعرض فى نفس يعقوب فالتوصف بمعناه العام قديم موغل فى التاريخ، تقدم النزعة التى دعت إليه، وهى نزعة تصفية القلب وإخلاص العبودية لله، ولكنه لما وجد تحت ظلال الإسلام، وأحيط بآداب القرآن، دخل فى دور جديد [2].

وردّ "مصطفى عبد الرازق" على "جولد زيهر" فى زعمه بأنه يجب عند النظر فى التصوّف الإسلامىّ نظراً تاريخياً تقدير النصيب "الهندى" الذى أسهم فى تكوين هذه الطريقة الدينيّة المتولّدة من المذهب الأفلاطونى الجديد، مما تابع فيه زميله "نيكلسون" و أنّ "نيكلسون" على الأصحّ قد تابعه فيه [3].

إنّ منابع التصوّف الإسلامى هى منابع إسلاميّة صِرفة، وفى ذلك يقول الإمام "الجنيد": "مذهبنا هذا – التصوّف – مقيَّد بأصول الكتاب والسنة". ويقول: "علمنا هذا مشيّد بحديث رسول الله ﷺ". ويقول: "علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسُّنة وإنما هو ثمرة العلم والتقوى، فيوفّق صاحبها للخير، ويُلهَم الرُّشد، فأما أن يترك العلم ويقول: إنه يعتمد على الإلهام والخواطر، فليس هذا بشئ؛ إذ لولا العلم النّقلى ما عرفنا ما يقع فى النفس، أمن الإلهام للخير، أو الوسوسة من الشيطان، واعلم أن العلم الإلهامى الملقَى فى القلوب لا يكفى عن العلم المنقول. كما أن العلوم العقليّة لا تكفى عن العلوم الشرعيّة، فإن العقليّة كالأغذية، والشرعيّة كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا" [4].

---

(١) ذاته ص١٧.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين – للأستاذ/ محمد فريد وجدى، وأيضا التصوف عند المستشرقين – للدكتور/ أحمد الشرباصى ص١٩.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية – مادة "تصوف".

(٤) ذاته ص٣٢٢.

وقيل: "ما أخلص عبدٌ قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[1]

ويقول "الشعراني": "التصوّف عبارة عن علم انْقَدَحَ في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسُّنة، فكلُّ من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها"[2].

ونحن لسنا مع مذهب من يُرجع المعاني التي تناولها الصوفيّة إلى أدب أو تصوف الفرس والهند واليونان مع القرآن والسنة والذّوق. ولكنّا نقول: إنّ توافق الأفكار بين شاعر وشاعر، وكاتب وكاتب أكثر تبادراً إلى الذهن من محاولة إثبات الأخذ ولو صح أن صوفياً أخذ معنى حكمة قديمة وعبّر عنها بأسلوبه فليس في ذلك ضير: لأن الثقافات تتّصل في نفس الأديب والشاعر بشعور وبلا شعور، ولأنّ من طبيعة الحضور والثقافات أن يأخذ المتأخّر من المتقدّم، ونحن لا نبحث عن العوارض المشتركة بين الأدب الصوفي وغيره. وإنما نبحث عن المميزات الأصيلة له. والسّمات الواضحة فيه[3] ونحن إلى هذا الرأي أميل.

نعم إن المسيحية هي دين الزّهد، ولكن الزّهد هو المعنى العام للتصوّف، لا المعنى الخاص الذي كان عليه التصوف الإسلامي. ونجد أنّ المسيحية- وهي تقول بطبيعة واحدة للمسيح- عندما تلتقي بالتفكير الوثني الإغريقي والروماني في جامعة الإسكندرية وغيرها تعود فتقول بالتثليث. لأن عادة التفكير الوثني تأليه البشر. والقول بألوهية بعض الناس كذلك نرى فكرة التثليث واضحة في مصر القديمة "إيزيس، أوزوريس، هورس" والأفلاطونية الجديدة ليست إلا أثراً لاتّصال الفكر الشرقي بالفكر الإغريقي في جامعة الإسكندرية القديمة. هذا الاتّصال الذي نشر فكرة التّثليث في المسيحية هو راهب مصري لم يلبس أن أصبح البابا العشرين لكنيسة الإسكندرية (٣٢٦- ٣٧٣م) واسمه

---

(١) الرسالة القشيرية – ط١ ص٩٦

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ١/٤، وأيضا الأدب الصوفي للدكتور محمود فرج ص٦٢.

(٣) دراسات في الأدب الصوفي – دكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ١/١١٠.

"أثناسيوس"(١).

وكانت "أوديسا" مركزاً للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح، وكان النّصارى الساميّون يحاربون التّماثيل الوثنيّة، وعقدت المؤتمرات الدينيّة للبحث فى طبيعة المسيح وإدخال الصُّور والتّماثيل، ولقد وقف المستشرقون من الإسلام نفسه موقفاً أعجب، فذهب "نيكلسون" إلى أن الإسلام بجملته وتفصيله مردود فى أصوله وفروعه إلى الرُّهبنة المسيحية.

ويذهب "جولد زيهر" إلى أن "الآرية" أعظم من "السامية"، وكذلك "رينان" الذى فَصَل بين العقليّة "الآريّة" والعقلية "الساميّة"، أى بين العقليّة الشرقيّة والأوروبيّة، ورأى أن الغرب يُبدع والشّرق يحاول فَهْم إبداع المدركات الأوروبية.

وعلى هذا النَّمط يفكّر "غوستاف لوبون" صاحب "حضارة العرب" الذى ابتدع للإسلام أصلاً من الأسطورية اليونانية والرهبنة المسيحية.

وعلى هذا المنهج يفكر "كايتانى" الإيطالى صاحب "حوليات الإسلام" والأب "لامنس" البلجيكى، و"ماسينيون" الفرنسى، و"نيكلسون" الإنجليزى وسواهم.

وتترنم بعض الآداب المصرية القديمة بفكرة تمجيد الله والتَّبتُّل فى محبته وطاعته، وقد عمل "إخناتون" على نشر فكرة التوحيد، ولكنَّه أخفق وقُضى على مذهبه بعد وفاته(٢).

ولا يصحُّ أن نسمّى ذلك تصوّفاً، ونذهب إلى أنه منبع من منابع التصوّف الإسلامىّ، وكذلك لا يصح أن نربط بين التّصوّف وبين بعض الأفكار الفارسيّة القديمة والمذاهب الهندية القديمة فى الزّهد كذلك.

وإذا كان الرّهبان والأحبار فى الأديرة والصوامع قد لجأوا إلى الزّهد، وعاشوا به وعليه، فإن حركتهم هذه ليست لها صلة بالتصوّف الإسلامى (٣).

والسّلف من الصّوفيّة كانوا أهل علم وعَمَل، يقول "ابن الجوزى":

---

(١) تاريخ الكنيسة المصرية – مجلة الهلال – عدد ديسمبر ١٩٢٧.

(٢) راجع كتاب إخناتون لعبد المنعم أبو بكر – سلسلة المكتبة الثقافية.

(٣) دراسات التصوف الإسلامى ظلاله فى الأدب العربى – تأليف/ محمد عبد المنعم خفاجى – الناشر: مكتبة القاهرة ص٦٦.

"وقد كان أوائل الصوفيّة يقرُّون بأن التّعويل على الكتاب والسُّنة وإنما لَبَّسَ الشّيطان عليهم لقلّة علمهم"[1].

يقول "أبو يزيد": "لو نظرتم إلى رجل أُعْطِى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحِفْظ الحدود"[2].

وبإسناد عن أبى موسى يقول: "سمعت "أبا يزيد البسطامىّ" قال: "من ترك قراءة القرآن، والتّفقُّد، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادَّعَى بهذا الشّأن فهو مُبتدع"[3].

وبالإسناد عن "عبد الحميد الحبلىّ" يقول: "سمعت سرياً يقول: من ادّعى باطن علم بنقض ظاهر حكم فهو غالط"[4].

وعن "الجنيد" أنه قال: "مذهبنا هذا مقيد بالأصول "الكتاب والسُّنة".

وقال أيضاً: "علمنا منوط بالكتاب والسُّنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقتدَى به"[5].

وقال أيضاً: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات؛ لأنَّ التصوُّف من صفاء المعاملة مع الله – سبحانه وتعالى – وأصله التخرق عن الدنيا كما قال "حارثة" عزفت نفسى فى الدنيا فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى"[6].

وعن "أبى بكر الشّنّاف": "مَنْ ضيّع حدود الأمر والنّهى فى الظّاهر حُرم مشاهدة القلب فى الباطن"، وقال "الحسين النّورى" لبعض أصحابه "من رأيته يدّعى مع الله –

---

(١) تلبيس إبليس – للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى ص١٦٨ – مكتبة الإمام – ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٢) ذاته

(٣) ذاته.

(٤) ذاته.

(٥) ذاته

(٦) ذاته ص١٦٨.

عز وجل - حالة تخرجه عن حدّ علم الشّرع فلا تقربنّه ،ومن رأيته يدّعى حالة لا يدلُّ عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتّهمه على دينه".

وعن "الحريرى" قال: "أمْرُنا هذا كلُّه مجموع على فضل واحد: هو أن تلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائماً".

وعن "أبى جعفر" قال : مَن لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسُّنة، ولم يَتّهم خاطره فلا تعدُّه فى ديوان الرجال"[1].

وقول "ابن الجوزى" أيضاً: "وما كان المتقدّمون فى التصوّف إلا رؤوساً فى القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء أحبُّوا البطالة"[2].

ولا ننكر أنه إذا طهر القلب انصبَّت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله إلا أنه ينبغى أن يكون تطهيره بمقتضى العلم ، لا بما ينافيه، فإنّ الجوع الشّديد والسَّهر وتضييع الزمان فى التخيُّلات أمور ينهى الشَّرع عنها، فلا يستفاد من صاحب الشّرع شئ ينسب إلى ما نهى عنه، كما لا تُستباح الرّخص فى سفر قد نهى عنه، ثم لا تنافى بين العلم والرياضة بل العلم يعلم كيفية الرياضة، ويُعين على تصحيحها، وأنّ الله – عز وجل – يُلهم الإنسان الشئ كما قال النبىّ ﷺ "إنّ فى الأمم محدّثين، وإن يكن فى أمتى فعمر"[3].

والمراد بالتحديث: إلهام الخير، إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه. وأما الخضر فقد قيل إنه نبىّ ولا يُنكر للأنبياء الاطّلاع بالوحى على العواقب وليس الإلهام من العلم فى شئ.

---

(١) ذاته

(٢) ذاته ص٣٢٣

(٣) ذاته ص٣٢٢

ابن الفارض

هو الشّاعر "شرف الدين عمر بن علي" المعروف "بابن الفارض". أشهر شعراء مصر في عصر الدولة الأيوبية، وهو شاعر صوفي أوقف شعره على التصوّف، والعشق الإلهي وقد ورث الرُّوح الصوفيَّة عن والده، وبعد وفاة والده هاجر إلى "مكة المكرمة"، وأقام بها خمسة عشر عاماً، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها حتى لقي الله – عز وجل – ودفن "بسفح المقطم" عن ستة وخمسين عاماً، وكان من أصحاب "المذهب الرمزي" في شعره الذي نحا فيه منحى كبار الصوفية، وأكثر فيه من صنعة البديع، مع الإجادة والرّقة، وطول النفس مع الاتّكاء على مصطلحات الصوفية ورموزهم، وقد ذاع صيته واشتهر شعره بين الأدباء والشعراء والنقاد والصوفية والمستشرقين، وله ديوان شعر معروف، وقد نهض بشرحه "حسن البوريني"، وعبد الغني النابلسي وشرحه أيضاً "رشيد بن غالب"، وكان "ابن الفارض" ورعاً زاهداً، متصوفاً، يتحلّى بالصَّلاح والتَّقوى، وكان النَّاس يجلّونه، وقدَّره الملوك والأمراء وكان إذا مشى في القاهرة يزدحم الناس عليه؛ يلتمسون منه البركة والدعاء، مع الهيبة والوقار، فكان إذا خاطبه الخاصَّة من الناس فكأنّما يخاطبون سلطاناً عظيماً. وكان شديد التأثّر بالجمال في كل مظهر من مظاهره يميل إلى الخلوة والتقشُّف حسن العشرة، كريم السَّجايا، مولع بالعشق الإلهيّ. حتى سُمّي "سلطان العاشقين" وقد تجلّت جميع هذه السِّمات، وتلك الخصائص في شعره، وقد جاء ممتلأ باصطلاحات الصوفيَّة وعشقهم وآلامهم، وأحوالهم من وجد وسُكْر، وصَحْو وهوى، وشطح وتغريد وغير ذلك من قصص حُبِّهم الرّوحي الخالص، ويُعد "ابن الفارض" أشهر شعراء الصوفيين، ويغلب على شعره أسلوب عصره، وهو عصر "القاضي الفاضل"[1]، و"العماد الأصبهاني"، و"ابن النبيه"، و"البهاء زهير"، و"ابن سناء الملك"، وغيرهم فهو مولع بالصناعة البديعية من جناس، وطباق، ومقابلة، وطيّ، ونشر، ومُشاكَلة، وتورية، ويمتاز

---

(١) ابن الفارض والحب الإلهي - لمحمد مصطفى حلمي – التصوف الاسلامي لزكي مبارك ٢٩٠/١ وما بعدها، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٧/٣.

أسلوبه بلُطف العبارة والإشارة، وحلاوة الجرس، ودقة الوصف، والتّشبيه والتّمثيل، ومما ميز شعره "الرمزية" التى اعتمد عليها اعتماداً كبيراً فى شعره، مع التعسّف فى الصّناعة البديعية اللفظية. وأوقف جُلّ شعره على الحب الإلهى المملوء باصطلاحات السّالكين وقد كان لعصره وبيئته وأسرته التى ترعرع فى أحضانها أثر واضح فى ثقافته وشعره، ويُعد "ابن الفارض" من أكثر الشعراء الذين عنى النقاد بتعرهم دراسة وتحليلاً [1].

وهذه قصيدة من شعره، وهى "بائية" من بحر "الرمل" وقد نظمها الشاعر وهو مقيم فى الحجاز، وهى قصيدة مشهورة بين الأدباء والنّقاد، واستهلّ بها ديوانه وتبلغ نحو الخمسين والمائة بيتاً، ويروى أن الملك "الكامل الأيوبى" كان يحبّ أهل العلم ويحاضرهم فى مجلس مختص بهم، وكان يميل إلى فنّ الأدب. فتذاكروا يوماً فى الشّعر وأصعب القوافى، فقال الكامل: من أصعبها "الياء الساكنة"، فمن كن منكم يحفظ شيئاً منها فليذكره، فتذاكروا فى ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات، فقال "الكامل": أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة.. وذكرها، فاستحسن الحاضرون ذلك، فقال القاضى "شرف الدين" كاتب سرّ الملك: أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة، فقال "الكامل": يا شرف الدين. جمعتُ فى خزائنى أكثر دواوين الشعراء فى الجاهليّة والإسلام، وأنا أحب هذه القافية، فلم أجد فيها أكثر مما ذكرته لكم، فأنشدنى هذه الأبيات التى ذكرت، فأنشده "بائية ابن الفارض"، فقال "الكامل": يا "شرف الدين" لمن هذه القصيدة، فلم أسمع مثلها، فقال: هذه من نظم الشيخ "شرف الدين عمر بن الفارض".. فبعث الملك إليه بهدية ثمينة مع كاتب سره، فرفضها ابن الفارض، فذهب الكامل لزيارته حيث كان يعتكف فى قاعة الخطابة بالأزهر الشريف، فخرج الشّيخ من الجامع، وسافر إلى الإسكندرية أياماً، ثم رجع إلى الجامع الأزهر مريضاً فأرسل إليه الكامل يستأذنه أن يبنى له

---

(١) الديوان، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٨٣/١، والخطط المقريزية، وحسن المحاضرة للسيوطى وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى فى أخبار عام ٦٣٢هـ بتصرف، وأيضا: أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى لأنيس المقدسى ص٣٦٩.

خلوة بقبة الإمام الشافعي، فلم يأذن له بذلك [1].

وقد اخترنا من القصية هذه الأبيات وهي:

سائق الأظعان يطوى البيد طى ∴ منعماً عرج على كثبان طى
وبذات الشيخ عنى إن مرر ∴ ت بحى من عريب الجزع حنى
وتلطف وأجر ذكرى عندهم ∴ علهم أن ينظروا عطفاً إلىّ
قل تركت الصب فيهم شبحاً ∴ ماله مما يراه الشوق فىّ
يا أهيل الودّ أنى تذكرو ∴ نى كهلاً بعد عرفانى فتىّ؟!
نصباً أكسبنى الشوق كما ∴ تكسب الأفعال نصب لام كى
رجع اللاحى عليكم آيا ∴ من رشادى وكذلك العشق غى
أبعينيه عمى عنكم كما ∴ صمم على عزله فى أذنى ؟
بل اسيئوا فى الهوى أو أحسنوا ∴ كل شئ حسن منكم لدىّ
وروح القلب يذكر المنحنى ∴ وأعده عندى سمعى يا أخى
لم يرق لى منزل بعد القفا ∴ لا ، ولا مستحسن من بعد مى
آه وأشواقى لضاحى وجهها ∴ وظمأ قلبى إلى ذاك اللمى
فلكل منه والألحاظ لى ∴ سكرة ، واطرباً من سكرتى
لست أنسى بالثنايا قولها ∴ كل من فى الحى أسرى فى يدي
سليمو مستخبروا أنفسهم ∴ هل نجت أنفسهم من قبضتى
ما رأت مثلك عينى حسنا ∴ وكمثلى بك صبا لم ترى
نسب أقرب فى شرع الهوى ∴ بيتاً من نسب من أبوى

---

(١) شرح رشيد ابن غالب لديوان ابن الفارض ٩/١ ، ١٠ المطبعة الخيرية بالقاهرة.

ساعدى بالطيف إن عزت منى ∴ قصر عن نيلها فى ساعدى
كاد – لولا أدمعى – أستغفر الله ∴ يخفى حبكم عن ملكى
أى صبا أى صبا هجت لنا ∴ سحراً من أين ذياك الشذى
كان لى قلب بجرعاء الحمى ∴ ضاع منى هل له رد علىّ
أى عيش مر لى فى ظله ∴ أسفى إذا صار حظى منه أى
ذهب العمر ضياعاً وانقضى ∴ باطلاً إن لم أفز منك بشي

الدراسة والتحليل:

١ – السائق: هو الذى يمشى خلف المطية يزعجها لتجدّ فى السّير – الأظعان: جمع ظعينة، وهو الهودج سواء أكانت فيه امرأة أم لا.

يطوى: يقطع – البيد: جمع بيداء، وهى الفلاة – طى: مصدر مؤكد – المنعم: المتفضّل. أو هو القاصد "وادى نعمان" – عرّج: مِلْ أو أقِمْ أو أجس المطية – الكُثبان: مفردها كَثيب، وهو مجتمع الرّمل – طى: اسم القبيلة.

المعنى: أيها الحادى للإبل فى الفلوات يطوى البيداء طيّاً مسرعاً لا يتوقّف، قاصداً "وادى نعمان" تمهّل قليلاً. ومِلْ بالإبل إلى كثبان طى، حيث الأحبّة والأصفياء. ويقول شارح الديوان: إن السائق كناية عن الله – تعالى – وكثبان طى: كناية عن المقامات المحمدية الكثيرة، فكأنه يتضرّع إليه أن يوصله لما يوصل جميع المؤمنين إليها.

٢ – ذات الشّيح: اسم موضع من ديار بنى يربوع – الحىّ: البطن من العرب – العريب: تصغير عرب وهم سكان المدن من غير العجم – الجزع: منعطف الوادى أو وسطه، وهو قرية عن يمين الطائف – حىّ: فعل أمر مأخوذ من حياه تحية إذا سلّم عليه.

المعنى: يقول حىّ نيابة عنى أحبابى وخلانى إن مررت بذات الشّيح، حيث هم مستقرّون فى هذا المكان مع عرب الجزع. ويقول شارح الديوان: إنه كنى بذات الشّيح عن

مقام الحيرة فى الله ، وبالحىّ عن المشاهد العلا ، وأراد بالجزع أنه موضع حَطّ الرِّحال ، حيث تنعطف عليه جميع الآمال.

٣ – تلطُّف : يعنى ارفق – أجر : اطرح – عطفاً : شفقة.

المعنى : ترفّق أيها الحادى مع هؤلاء الأحباب ، وانتهز الفرصة المواتية لتذكرنى عندهم ، وتشرح حالى وما ألاقيه فى حُبّهم ، فلعلّهم يشملونى بنظرة عطف ، ويغمرونني بالحنوّ ومشاعر المودّة والعطف علىّ : لتخفيف ما أعانيه فى حُبّهم ، وشوقى إلى لقائهم ونعيمى بمودّتهم.

٤ – الصَّبّ : المتيّم فى العشق – الشّبح : الشّخص يبدو ظلّه ولا يُرى جسمه – براه : أسقمه وأضناه – الشّوق : العشق – (فىّ) أصلها الفئ ، وهو ما كان شمساً ثم نسخه الظّلّ ، وهو الظّل الذى فاء ورجع عن الشّاخص.

المعنى : قُل يا أيّها السّائق للأحباب : تركتم مُحبّكم سقيماً هزيلاً ، أنحله الضّنى حتى اضمحلّ رسمه ، وأصبح لا يُرى ظلُّه.

٥ – أهَيْل : تصغير أهل – أنّى : بمعنى كيف ، والاستفهام هنا بمعنى التعجب – كهلاً : يعنى شيخاً – فتىّ : تصغير فتى وهو الشّاب.

المعنى : يا أهل المحبة ، عجباً لإنكاركم إياى كهلاً بعد معرفتكم لى وأنا شاب فتىّ.

٦ – النَّصَب : التّعب. والنّصْب بسكون الصّاد : الفتح وبينهما جناس – الشّوق : شدّة الحب.

المعنى : إنّ الشّوق إلى الأحبّة أكسبنى السّقام والضّنى ، مثل ما أكسبت "لام كى" النّصْب للأفعال المضارعة.

٧ – اللاحى : اللائم – والآيس : اسم فاعل من "أيس" إذا قنط ولم يبق له طمع فى شئ الرّشاد : الاهتداء – الغىّ : خلاف الرّشاد.

المعنى : رَجْع اللائم لى على حُبّكم قانطاً من هُداى ، قاطعاً أمله منه فإنّ العشق يدفع صاحبه إلى التّمادى فى الحبّ وتَرْك نصح الناصحين.

٨ – أبعينه عمى؟ الاستفهام هنا للتّعجب – العمى: عدم البصر – الصم: عدم السمع – العذل: الملامة – والعاذل: اللائم.

المعنى: هل عمى العزّال لى فى حُبّكم عن الجمال السّاحر الذى تيّمنى حتى أشبه عمى عينيه. صمم أذنى عن لومه وعذله فلا أطيع له لوماً، ولا أسمع له عذلاً.

المعنى: يقول للعذّال: أسيئوا أو أحسنوا فكلّ شئ منكم مقبول منى حَسَن لدىّ فوصالكم وهجركم وقُربكم وبُعدكم تقرّ به عينى، ولا أعدّه منكم إساءة.

٩ – روّح القلب: أعطه الراحة – القلب: الفؤاد – الذكر: التّذكُّر – المنحنى: منعطف الوادى، أى موضع انعطافه وانحنائه، وهو اسم مكان معروف فى بلاد الحجاز – أخىّ: بتشديد الياء: تصغير لكلمة أخ.

المعنى: اذكر أيها الصّديق اسم المكان الذى فيه أحبّتى، ففى ذكره سلوى للقلب وراحة لوجدانى، وكرّر ذكره على سمعى، ففى تكراره لذّة وشفاء من العناء والشّقاء.

١٠ – راق لفلان المكان: أى صَفَتْ له معيشته فيه – المنزل: مكان النزول – النّقا: القطعة من الرمل – لا: تأكيد للنفى المفهوم من قوله: "لم يرق لى" – مستحسن: مأخوذ من استحسنت الشئ أى: عددته حسناً – "مىّ": اسم محبوبة "ذى الرمة" وكنى بها هنا عن محبوبته.

المعنى: فارقت مسكنى وسكنى، فلم ألق بعدهما ما يغنى عنهما. فالوطن محبوب والحبيب لا تطيب بدونه الحياة.

١١ – "آه": كلمة تُقال عند الشّكاية والتوجّع والألم – الضّاحى: المشرق – الظّمأ إلى الشئ: الشوق إليه – اللمى: مصغر "لمى"، وهو سُمْرة فى الشّفة، وهى أمارة جمال عند العرب.

المعنى: ما أشدّ سقمى وشوقى إلى وجه "مىّ" الجميل المشرق، وما أكثر شوقى إلى ريقها العذب.

١٢ – الألحاظ: مفردها "لحظ" وهى العيون – السّكرة: اسم المرة من السُّكر –

الطُّرب: الفرح، وهو أيضاً الحزن، فهو من أسماء الأضداد.

المعنى: لى سكرتان: واحدة من الحبيبة وعذب ريقها، والأخرى من سحر لحاظها فوا شدّة شوقى من هاتين السّكرتين. وقريب من هذا المعنى قول "ابن الفارض" فى تائيّته:

وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن ... شمائله لا من شمولى نشوتى

١٣ – الثّنايا: جمع ثنية، وهى العقبة أو الجبل أو الطّريق فيهما. الحىّ: القوم المجتمعون النّازلون فى مكان – أسرى: جمع أسير.

المعنى: لقد سحرتنى حبيبتى بقولها لى فى هذا المكان: "إنّ كلّ مَن فى هذا الحىّ أسرى حبّى وجمالى".

١٤ – أنْفس: اسم تفضيل، من النّفاسة، وهى الشئ الثّمين، والمراد أحسنهم أنْفس جمع نفس. وبينهما جناس، وكنى بالقبضتين عن تمام السُّلطان والقدرة، والبيت كلُّه من كلام المحبوبة

المعنى: اسأل – أيها الحبيب – الحىّ، واستخبرهم من أشرافهم وأبرارهم، هل نجوا وخت قلوبهم من سحرى وسلطانى.

١٥ – العَشَّ: المتيّم حُبّاً، والمعنى: لم تر عينى إنسانة مثلك حُسناً وجمالاً، ولن ترى مثلى خبلك صبّاً مستهاماً.

١٦ – المعنى: إن الحبّ بينا نَسَب، وياله من نسب! فهو أقرب وأشدّ صلة من نسب الأبوين، وروى أن الرّسول ﷺ قال "لابن الفارض" منامًا: يا "عمر"، أنت منّا أنت منّا، فأشار إلى ذلك فى هذا البيت.

١٧ – ساعدنى: أسعفنى، من المساعدة وهى الرعاية أو المعاونة – الطّيف: خيال الأحباب فى النّوم – المنى: جمع منية، وهو ما يتمنّاه الإنسان – القصر: ضدّ الطّول – نَيْلها: إدراكها – ساعدَىّ: مثنى ساعد.

المعنى: إن عز تحقيق آمالى فى لقائك وقربك ومشاهدتك وزيارتك، فزورينى طيفاً فى المنام لأشفى لواعجَ أحزانى وآلامى فإن يدى تقصران عن نيل ما أتمنى، وإدراك ما أريد.

١٨ – كاد: قَرُبَ – أدْمُع: جمع دمع – أستغفر الله: جملة اعتراضية.

المعنى: لولا الدّموع التى تتساقط من عينىّ، لكاد أن يخفى حبّى لكم عن الْمَلَكَيْن الموكلين بكتابة أعمالى، وأستغفر الله مما أقول.

١٩ – الصّبا: ريح الشّمال، وأى: لنداء القريب – والصّبا الثانية: المحبّة – هجْت: ثرت – الشّذى: تصغير شذى وهو الرّائحة الطيبة.

المعنى: أيها الرّيح الطّيبة لقد هجت لنا أرواحاً عاشقة، وذكريات طيّبة، بشذاك الطّيب العطر، الذى يحكى لنا شذى المحبوب وعطره.

٢٠ – جرعاء الحمى: اسم موضع.

المعنى: إنّ قلبى قد تركته عند أحبابى فى هذا المكان، وافتقدته بعد ذلك فلم أجده فهل يعود إلىّ يوماً من الأيام؟

٢١ – أى: اسم استفهام يقصد منه التّهويل والتّعظيم – ظلُّه: أى ظلّ هذا المكان المذكور قبله – الأسف: أشدّ الحزن.

المعنى: ما أطيب العيش، وأحلاه قديماً وأنا مقيم فى هذا المكان وما أعظم أسفى إذ صار حظّى من هذا الماضى الجميل أن أتذكّره أسفاً حزيناً

٢٢ – المعنى: يتأسّف الشّاعر على ما فات من عمره ضياعاً، ويتحسّر على ما انقضى باطلاً، إذ لم يقرّ من مراده بالمراد. فأما إذا فاز منه بحظ ولو كان قليلاً فإنه يكون قد أدرك الخير الكثير والمجد العظيم.

هذه القصيدة من "بحر الرمل"، وهو بحر غنائىّ مشهور، ومع أن قافيتها صعبة وهى "الياء المشددة الساكنة"، ومع ذلك فقد ذلّلتْ روح "ابن الفارض" الغنائية الأصيلة كل أثر لهذه الصّعوبة، لذلك جاءت القصيدة فى قمّة الحسن والإحسان والرّوعة والبيان والموسيقى الجيّاشة. والوحدة الموضوعيّة ظاهرة فى القصيدة، حيث إنها جاءت فى موضوع واحد، وهو الحبّ الإلهىّ، والوحدة الفنيّة أيضاً واضحة فى القصيدة، حيث جاءت الألفاظ والصّور مترابطة مع التجربة ترابطاً وثيقاً، ولذلك عبرت أصدق تعبير عما

فى القصيدة من انفعالات وعواطف وأفكار. والقصيدة تمثل تجربة ذاتيّة للشّاعر، وهى عاطفة الحبّ الإلهىّ، كما أن فيها إيقاعات موسيقية عذبة، وتتواكب فيها صور متلاحقة تُعدّ أجزاء مترابطة من التجربة تعبر عن حالة الشّاعر الوجدانيّة، كما أن القصيدة تُعدّ لوحة فنيّة وقد جاءت متوائمة مع الفكرة. والصورة الشعرية فى القصيدة جاءت فى أعلى درجاتها من العذوبة، والموسيقى متفاعلة مع التجربة، وتبدو الصّور الشعريّة فى أساليبه الرّائعة وفى تصوير الشاعر لمعانيه ولعواطفه، ولتجربته تصويراً دقيقاً مؤثّراً موجباً، و"لابن الفارض" فى هذا المضمار قدرة بارعة، وتمثّل القصيدة الصناعة الفنيّة لدى "ابن الفارض" تمثيلاً قوياً: حيث حرص الشاعر فيها على الجناس، مثل: "طى، طى"، و"حى وحى" ونَصَباً ونَصْباً"، و"أنفُسهم وأنفَسهم"، و"صبا وصبا". كما حرص على الطباق والمقابلة مثل: قوله "يطوى وعرج"، ففيها مقابلة "ورشاد وغى"، و"أسيئوا وأحسنوا"، "أنى تنكروبى كهلاً بعد عرفانى فتى". كما حرص على التزام مراعاة النّظير فى قوله "واشوقى وطمأ تلسى"، و"عمى وصمم"، و"سائق الأظعان ويطى"، "كثبان طى" كما ترى لديه التشبيهات البليغة الرائعة، كقوله "تركت الصّبّ فيكم شبحاً"، أى كالشّبح، وقوله "نصباً أكسبنى الشّوق كما".. وفى القصيدة كثرة كاثرة من المبالغات المقبولة، والمجازات والاستعارات، مثل "براه الشوق"، "كلّ مَن فى الحىّ أسرى فى يدىّ"، والاستعارة التّمثيلية فى قولها "قصر عن نيلها فى ساعدى" كما ترى الغزل الرقيق العذب فى قوله: "وتلطف واجر ذكرى عندهم" "كان لى قلب بجرعاء الحمى". وهذه الرقة مبعثها الحبّ الذى أضناه والوجد الذى تيّمه، والغرام الذى أسكَرَه، ولا يوجد بين المتصوّفة من يحاكى "ابن الفارض" فى هذا الميدان

ويقول الدكتور "خفاجى": "عندما نحكم على القصيدة وفق المذهب الفقهىّ أو اللغوىّ أو البلاغىّ نظلم القصيدة؛ لأننا سننظر إلى اللغة والأسلوب والتشابيه والاستعارات وصور التّعبير البيانىّ والبديعىّ والمعنوىّ وحدها، ولكننا إذا حكّمنا عليها وفق المذهب الفنىّ فسوف ننصف القصيدة إنصافاً كبيراً، ونرفع من منزلتها إلى درجة

عالية ؛ لأنّنا سننظر إلى تجربتها الشّعريّة ، وإلى الوحدة فى القصيدة ، وإلى الفكرة ، وإلى مادّة التّجربة من عاطفة أو انفعال ، وإلى الخيال والصّور الشّعريّة والموسيقى ، وسنخرج من كلّ ذلك بحُكم عادل على "ابن الفارض" فى قصيدته هذه ، وهو ما فعلناه فى نقدنا لهذه القصيدة التى بدأ بها الأدباء القدامى "ديوان ابن الفارض" ، وعَدَّها المحدثون من جياد شعره[1] .

والرمز فى القصيدة هو نقلها إلى جو نعرف عنه بالذّوق ولا نحدّده بالصّفة ، وحول هذا الرمز يدور "ابن الفارض" فى تصوير الحبّ الإلهىّ ، وفى القصيدة ظاهرة واضحة ، وهى كثرة الكلمات التى استعملها الشاعر فى قصيدته مصغّرة ، والتّصغير إذا كان عند "المتنبى" تعاظماً وكبرياء وخيلاء ، فإنه عند "ابن الفارض" تواضع وإيناس وبشاشة ، وتكثر فى شعر "ابن الفارض" ألفاظ : الشّوق والوجد ، والحبّ والخمر ، والأفراح والهمّ ، والسّكر والوصل[2] . فبحق كان "ابن الفارض" إمام العاشقين وسلطانهم.

وله قصيدة أخرى فى الحبّ الإلهىّ يطلب فيها رؤية الله – عز وجل – وأن يسمح له بالرّؤية ، ولا يقول له كما قال "لموسى" – عليه السلام : .....

﴿ .....قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي .. ﴾[3]

ثم يعاود نفسه ويخشى ألا تتحقّق له الرّؤية فيحذّر قلبه من اليأس والقنوط . فيقول : أنت وعدتنى فى حبّهم صبراً ، فإياك أن تضجر و تضيق ذرعاً لعدم تحقّق الرّؤية واستحابة الرّغبة ، فإنّ الغرام هو الحياة ، فحقّك أن تموت فى سبيل ذلك ، ولك كل العذر ، ثم يخلو مع الحبيب وبينهما سرّ أرقّ من النّسيم إذا سرى ، فينطلق "ابن الفارض" يعزف على قيثارة الحبّ الإلهىّ والغرام الذى أسكره ، فانطلق مغرّداً شادياً عازفاً أرقّ الألحان وأحملها فيقول :

---

(١) دراسات فى الأدب الصوفى – للدكتور / خفاجى ٢/٦٤ ، ٦٥ .
(٢) دائه منصرف .
(٣) الأعراف : آية رقم ١٤٣

زِدْنـــى بَفـــرطِ الْحُـــبّ تحيّـــراً ∴ وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا ســـــألتك أنْ أراكَ حقيقـــةً ∴ فاسمح ولا تجعلْ جوابى لن ترى
يا قلبى أنت وعدتنى فى حـــبّهم ∴ صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا
إنّ الغرام هو الحياة فمُـتّ بـــه ∴ صَبّاً فحقُّك أن تمـــوت وتعـــذرا
ولقد خَلَوْتُ مع الحبيـــب وبيننـــا ∴ سرٌّ أرَقُّ من النّســـيم إذا ســـرى
وأبـــاح طرفـــى نظـــرة أملتهـــا ∴ فغدوت معروفاً وكنـــت مُنْكَـــرا
فدهشت بـــين جمالـــه وجلالـــه ∴ وغدا لسان الحال عنّى مخبـــرا
فَأَدِرْ لحاظك فى محاسن وجهـــه ∴ تلقى جميع الحسن فيه مصـــوّراً
لو أنّ كلّ الحسن يكمل صـــورة ∴ ورآه كـــان مهلّـــلا ومكبّـــراً [1]

---

(١) ديوان ابن الفارض .

الأدب في ظلال الدولة الناشئة

أولاً : الأدب في ظلال الحمدانيين:

تألّق اسم "الحمدانيّين" منذ أواخر القرن الثالث الهجريّ، وهي أسرة "تغلبيّة" عربيّة استطاع مؤسّسها في سنة ٢٧٧هـ أن يستولي على منطقة "ماردين" في الموصل، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة، ومن أبنائه اللامعين "سيف الدولة" الذي استطاع أن يستولي على "حلب"، و"حمص"، و"اللاذقيّة"، و"أنطاكيّة"، وأسّس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣هـ، متّخذاً "حلب" عاصمة له. هيّأ نفسه للنّهوض بعبء الحرب ضدّ "الروم البيزنطيّين"، وكان أوّل لقاء معهم في سنة ٣٣٦هـ، إذ أغاروا على "أطراف الشام"، ونهبوا وسبوا، فلحق بهم، وأذاقهم نكالاً شديداً، فكُتب له مجد عربيّ عظيم ضدّ الروم.

وسجّله له في لوحات شعريّة ناطقة "المتنبي"، الذي نزل بلاطه، ولزمه يصوّر ويسجّل ملاحمه الحربيّة السّاحقة للروم سحقاً ذريعاً[1].

سيف الدولة الحمداني ورعايته للأدب :

وقد ارتقى الأدب، وازدهر شعره ونثره في ظلال هذه الدّولة، وبرعاية زعيمها "سيف الدولة" حتى لتُعدّ الحركة الأدبيّة في عهد "الحمدانيّين" من أكبر الحركات، وأعظمها على الإطلاق؛ لما أتيح لها من عناية ورعاية، وحُسْن توجيه، وسطر التّاريخ لهذه الدولة مواقفها العظيمة من العلم والشّعر والشّعراء، ولا غرو في هذا، فرجال هذه الدولة عرب يهتزّون للشّعر، ويقرضونه ويتذوّقونه، وذاع شأن "حلب" وأصبحت كعبة العلماء ووجهة الشّعراء والأدباء، خاصّة أيّام "سيف الدولة"، الشاعر الكبير، والقائد المغامر الجسور.

وقد نشأ هذا الأمير الشاعر في بيئة عربيّة، يسمع الشّعر ويطرب له، فكان لذلك

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٥٠٥ وما بعدها - د/ شوقي ضيف.

أثره الكبير عليه فى حياته فيما بعد، وكان هذا الأمير الشّاعر وجهة الشّعراء، قبل أن يتولّى إمارة "حلب"، يعقد لهم المجالس، ويسمع منهم، ويجزل لهم العطاء، فامتلأت "حلب" بالشعراء الذين جاءوا حُباً فى سيف الدّولة وطمعاً فى عطائه يمدحونه، ويصوّرون معاركه التى خاضها، وشجاعته الباسلة التى رأوها فى هذه المعارك.

ومن هؤلاء الشّعراء "المتنبى" و"السرى الرفاء" و"النامى"، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا يتوافدون على ساحة سيف الدولة، ووصل الأمر "بابن نباتة السّعدىّ" إلى الضّيق والضّجر من كثرة العطايا التى أعطاها إياه "سيف الدولة"، فإذا هو يقول:

قد جُدْتَ لى بالّلها حتى ضجرت بها ∴ وكِدْتُ من ضجرى أُثنى على البُخْل

لم يُبْق جُودُك لى شيئاً أؤمّلُه ∴ تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

ومجالس سيف الدولة مع الشّعراء كثيرة، سمع بها القاصى والدانى، حتى الأعراب فى الصّحراء.

وفى ساحة "سيف الدولة" لمع "أبو فراس الحمدانى" الشاعر المشهور، وكان سيف الدولة يعجب به ويصطحبه فى غزواته، ويستخلفه فى أعماله، واشترك "أبو فراس" فى عدة معارك مع "سيف الدولة"، حارب فيها الروم، فأُسر فى إحداها، وجُرح فى فخذه، فحُمل إلى "القسطنطينية"، وسُجن فيها أربع سنوات، وكان "سيف الدولة" دا بصيرة بالشّعر، فقد نقد "المتنبى" حينما أنشده قصيدته التى يقول فيها:

وقفت وما فى الموت شكّ لواقف ∴ كأنك فى جفن الرّدى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ∴ ووجهك وضاح وثغرك باسم

فقال "سيف الدولة": قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتقد على "امرئ القيس" بيتاه:

كأنى لم أركب جواداً ولـم أقـل ∴ كخيل كرى كـرة بعـد إجفـال
ولم أسـبأ الـزق الـروى للـذة ∴ ولم أتبطّن كاعبـاً ذات خلخـال

وكان الأوْلى أن تقول :

وقفتُ وما فى الموت شكّ لواقف ووجهك وضاح وثغـرك باسـم
تمرّ بك الأبطال كلمـى هزيمـة كأنّك فى جفن الرّدى وهو نـائم

فقال "المتنبى" : أيّد الله مولانا، أخطأ "امرؤ القيس"، وأخطأت أنا، وإنما قرن "امرؤ القيس" لذّة النّساء بلذّة ركوب الصّيد، وقرن السّماح فى شراء الخمر للأضياف بالشّجاعة فى مُنازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت فى أوّل البيت أتبعته بذكر الرّدى، وهو الموت ليجانسه، ولما كان وجه الجريح لا يخلو من أن يكون عبوساً، وعينه من أن تكون باكية قلت : ووجهك وضاح وثغرك باسم ؛ لأجمع بين الأضداد فى المعنى، وإن لم يستسغ اللفظ لجميعها، فضحك "سيف الدولة". وأُعجب بجوابه، وأعطاه هبة عظيمة.

ولم تقتصر مجالس "سيف الدولة" على إلقاء الشّعر فقط، بل وُجد فيها بعض المشاحنات التى تأجّجت بين الشّعراء بعضهم مع بعض، ومنها هذه المشاحنة الطّريفة التى جرت بين "الخالدين" "والنامى"، و"السرى الرفاء" فكان الأخير يعتقد أن "الخالدين" يسرقان شعره، وينسبانه إليهما، فكان يشكوهما إلى "أبى البركات ناصر الدولة" قائلاً :

أشكو إليك حليفى غـارة شـهرا سيف الشّقاق على ديباج أفكـارى

وكان "السّرى" يعتقد أيضاً أن "النامى" الشاعر الجزار يسرق شعره، فقال :

أرى الجـزار هـيجن وولـى وكاشفنى وأسرع فـى انكشـافى

وبعد : فقد كان "سيف الدولة" لا يألوا جهداً فى الاحتفاء فى العلم والعلماء والأدباء فاجتمع حوله الشّعراء والأدباء، والكُتّاب والفلاسفة. ونهض الأدب فى ظلال "الحمدانيّين" نهضة لا تُنكَر.

الأدب في ظلال الفاطميين

ازدهار الأدب في مصر الفاطمية وأشهر شعراء العصر:

ويُنسَب الأدب الفاطميّ إلى "إسماعيل بن جعفر الصّادق" ، وقد استولوا على مصر بقيادة القائد "جوهر الصّقليّ" الذي نزل بالقرب من "الجامع الأزهر"[1].

وبدأ في التّخطيط لمدينة "القاهرة" ، وأوّل خطّة كانت "بناء الجامع الأزهر" ، لتُقام فيه الصّلوات ، ونشر الدّعوة الفاطميّة ، وفي عهد الفاطميّين ارتفع شأن الأدب ، وأصبح له المكانة العظمى في ذلك الوقت من الزّمان ، وقد اعتنق الفاطميّون المذهب الشّيعيّ وحاولوا هَدْم المذهب السنيّ الذي كان سائدا في مصر والشام آنذاك ، ونبغ منهم خليفتان اهتمّا بالعلم وأهله ، وهما : "العزيز بالله" ، سنة خمس وستّين وثلاثمائة للهجرة (٣٦٥)هـ إلى سنة ستّ وثمانين وثلاثمائة (٣٨٦)هـ ، والخليفة الثاني : هو "الحاكم بأمر الله" سنة ستّ وثمانين وثلاثمائة للهجرة إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة (٤١١)هـ.

كما أنشئت "خزانة الكتب" ، التي ضمّت مئات الآلوف من المجلّدات في العلوم على اختلاف موضوعاتها.

ومن العوامل التي أدّت إلى النّهضة العلميّة والأدبيّة في عهد الفاطميّين : حرصهم على رفعة الشّعر ، وإعلاء شأنه ، حتى أصبح يحتلّ مكانة سامقة في هذه الدّولة ، ولا غرْو فيه عرب يجري في دمهم حبّ الشّعر والاعتزاز به ، ومن هنا هَوَى إلى "مصر" في عهدهم كثير من الشّعراء أو الأدباء من جميع أرجاء العالم العربيّ ، والذي يتأمّل الحياة في العصر "الفاطميّ" يجد أنّها قد أترعت بكثير من الشّعراء الذين كان لهم شأن كبير في الحياة هناك ومن هؤلاء الشّعراء منْ وَفَد من "العراق" ، ومنهم من وَفَد من "الشّام" ، ومنهم من وفد من "اليمن" ، وكان لاجتماع هؤلاء الأثر الكبير في الحركة الأدبيّة والشعريّة في "العصر الفاطميّ" ، وجانب هذا اهتمّ الفاطميّون "بديوان الإنشاء" الذي كان له الأثر الكبير

---

(١) عصر الدول والامارات (مصر والشام) ص٢١ وما بعدها

فى ارتقاء الكتابة[1].

كما ظهر فى هذا العصر "الأمير والشاعر المجيد" ذو الشاعريّة الفائقة، والموهبة الرّائعة "تميم بن المعز"، وهو أشهر شعراء هذا العصر.

وهو "تميم بن المعز" مؤسّس الدّولة الفاطميّة، وُلد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة الكريمة، وقد عنى أبوه بتربيته إذ كان يُعدّه لولاية العهد، فأحضر له المعلّمين الدّينيّين واللّغويّين، وعَهدَ إلى بعض دعاة النّحلة الفاطميّة بتلقينها له، وكانت للغلام موهبة فذّة فى الشّعر، فأكبّ على الشّعر فى أزمنته المتباينة يتزوّد منه، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته، وقد أُتيح له أن يحيا حياة ترف ولهو فى قصوره وبساتينه ورياضه [2].

وفى ديوانه ما يصوّر كؤوس اللّهو والمجون التى كان يعبّ منها عبّاً[3].

وكان ذا حسّ دقيق، وشعور مرهف، وشاعريّة متدفّقة، وكان "تميم بن المعز" يحْفل بالطّبيعة، ووصفها فى شعره، وله فى ذلك القدرة الفائقة. وله خمريّات أجاد فيها إجادته فى الفخر والمديح، وشكوى الزّمان [4]

وقد صوّر الشّعر الفاطمىّ البيئة المصريّة فى وضوح. وعبّر الشّعراء عن خلجات أنفسهم، وخبايا أفئدتهم فى صدق وصراحة، وقوّة فى التّصوير. ومَالَ الشّعراء إلى تصوير جمال النّيل، والحدائق. وما فيها من زهور، وزروع. وما على ضفّتى النّيل من قصور كما صوّر ما عليه المجتمع من رقّة وثراء ونعيم، وما فى "مصر" من خيرات وفيرة جعلتها أمَل المحتاجين، وكعبة السّائلين [5].

---

(١) دراسات فى الأدب العبسى ص٩٩ وما بعدها

(٢) دراسات فى الأدب العبسى ص٩٣ وما بعدها.

(٣) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٣٠٦ وما بعدها

(٤) محاضرات فى الأدب العربى ما بين عهد المتوكل وتحول الفرنسيين مصر ص٨٤.

(٥) دراسات فى الأدب العبسى ص١٠١ بتصرف

يقول "تميم بن المعز" فى النّيل :

يـــومٌ لنـــا بالنّيـــل مختصـــر ∴ ولكـــلّ يـــوم مســـرّة قصـــرْ

والسّفن تجرى كـــالخيول بنـــا ∴ صَعَداً أو جيش المـــاء منحـــدرُ

وكأنّمـــــا أمواجـــــه عُكَـــــنٌ ∴ وكأنّمـــــا داراتـــــه سُـــــرُرْ [1]

(١) الفن – مذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٧١ .

أشهر شعراء العصر الفاطمي

ومن أشهر شعراء العصر الفاطمي:

١ - "ابن وكيع التنيسي":

وهو "الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف التنيسى" وهو بغدادىّ، وولد "تنيس"، وهى مدينة كانت قرية من "بورسعيد" الحالية، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقف ويبدو أنه ضَلب المزيد من الثقافة، والتعرّف على أدباء "القاهرة"، فرحل إليها، وكانت شاعريّته تفتّحت فلفتت إليه الأنظار، وأعانه ثراؤه على انغماسه فى المجون، وآثر حياة المجون، والخمول على حياة العزّة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثّل كلّ ما كان فى "ديوان أبى نواس" حتى الجانب السيئ منه [١].

ويُعدّ "ابن وكيع" من أشهر الشّعراء فى وصف الزّهور، والزّروع التى تحفّ بالنّيل يقول الشّاعر "ابن وكيع" فى وصف الأزهار:

مِن نَرجسٍ أبيَضَ كالثغورِ ∴ كأنّهُ مَخانِقُ الكافورِ

وروضةٍ تزهرُ من بَنفسَجٍ ∴ كأنّها أرضٌ منَ الفيروزِ

وارمِ بعينيكَ إلى النهارِ ∴ فإنّهُ من أحسنِ الأنوارِ

كأنّهُ مداهنٌ من عَسجَدٍ ∴ قد سُمِّرَت في قُضُبِ الزَّبَرجَدِ

وقد تبعه الشّعراء يتغنّون بهذه الأزهار وتلك الأنوار [٢].

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٣٣١ وما بعدها.
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٧١.

وكان من أشهر شعراء هذا العصر أيضا :

٢ – الشريف العقيلي:

وهو الشّاعر "عليّ بن الحسن بن حدرة"، وينتهي نسبه إلى "عقيل بن أبي طالب"، تاريخ مولده غير معروف، وكذلك تاريخ وفاته [١]، وهو من أهل "الفسطاط"، وكان له بها متنزّهات، وليس في ديوانه مديح لخليفة "الفاطميين"، وفي ديوانه بعض الإخوانيات، وبعض الفخر والهجاء، ولا نبالغ إذا قلنا إنّه استغرقه شعر الطّبيعة والخمر، ومن شعره قوله:

الغَيْمُ مَمْدودُ السُّرادِق ... وَالزَّهْرُ مَفْروشُ النَّمارِق

والقَاشُ قَد نَقَشَت لَنا ... منهُ المَجالِسُ وَالمَرافِق

٣ – عمارة اليمني:

ومن شعراء العصر الفاطميّ هذا الشّاعر الفذّ، وهو "أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمنيّ"، وكان من أهل الجبال في "تهامة"، وهو "قحطانيّ". وُلد سنة ٥١٥ للهجرة في أسرة تهتمّ بالعلم والثّقافة، وفي سنة ٥٣١ للهجرة أرسله أبوه إلى "زبيد"، فتعلّم فيها الفقه الشافعيّ، وله في علم "الفرائض" – يعني المواريث – كما اتّصل بآل نجاح حكّام "زبيد"، ووزراتهم، كما اتّصل بآل زريع حكّام "عدن"، ومن شعره قصيدة سمّاها "شكاية المتكلّم ونكاية المتألّم"، يصف كثرة ما كان يصله من عطايا "الفائز"، و"العاضد" ووزراتهما، ومنها قوله:

مذاهبهم في الجود مذهب سُنّة ... وإن خالفوني في اعتقاد التّشيّع

وقد توعّد في بعض شعره مبغض الفاطميّين بالنّار وسوء المصير، وتمادى في هذا العيّ، والضّلال ملوّحاً بيده في وجه "صلاح الدين"، زاعماً أن الأئمّة الفاطميّين هم باب النّجاة، وأن حُبّهم أصل الدّين، يقول الشّاعر "عمارة اليمنيّ" في ذلك:

---

(١) النص ومذاهبه في الشعر العربي ص٤٧١ .

أئمّـــة خلفـــوا نـــوراً قبـــورهم ... من نور خالص نور الله لم يفل

والله لا زلت عن حبّى لهم أبـــداً ... ما أخّر الله لى فى مدّة الأجلِ [1]

النثر الفاطمي

أكثرَ الفاطميّون من اتّخاذ الكتّاب الذين يأنَسُون فيهم الكتابة والقُدرة على القيام بهذه المهمّة دون أن يقيموا وزناً لقصيدة الكاتب ، إنما المهمّ لديهم أن يكون الكاتب كُفواً يجيد عمَلَه ، ويُحسن التصرف فى وجوه الكتابة ، ولو رجعنا إلى "صُبْح الأعْشَى" ، أو كتاب "النّجوم الزّاهرة فى أخبار مصر والقاهرة" "لابن تغرى بردى" الأتابكىّ الأشعرىّ ، أو كتاب "حُسْن المحاضرة" للسّيوطى ، لوجدنا طائفة كبيرة من الكُتّاب فى "ديوان الإنشاء" الفاطمىّ منهم المسلم ، ومنهم الذمىّ ، بَيْد أنّ هذه الكتب لم تنقل لنا صورة واضحة عن أصل هؤلاء الكُتّاب ، وظروف حياتهم ، أو ثقافتهم ، أو النّواحى الفنيّة التى تميّزت بها أساليبهم ، وربما كان هذا الغموض راجعاً إلى كراهية المؤرّخين للفاطميّين الذين كانوا يغالون فى تشيّعهم ، وناحية أخرى وهى أنّ الأيوبيّين بزعامة "صلاح الدّين الأيوبى" أعدموا ما أمكنهم من آثار الفاطميّين الثّقافيّة ، حيث كانت مؤلّفاتهم الضّخمة تباع بثمن بخس [2] .

ومن الكُتّاب المشهورين ، بل ومن أبلغ الكتّاب المصريّين والفاطميّين "ابن الصوفىّ" فى إحدى رسائله الأدبيّة التى صنّفها "للأفضل الجمالى" :

"أوْلى ما يتقرّب به إلى الله – تعالى – الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيّته وتوحيده والصّلاة على نبيّه "محمد" ﷺ الذى عضّده بتأييده ، وخصّه من الشّرف بما لا سبيل إلى تحديده ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تحديده ، ثم التوسّل إلى ملوك كلّ وقت بشُكر نعمتهم ، ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكْر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ، ونقّبت فى البلاد" .

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٣٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٨٧ .

وواضح أن الكاتب كان يحسن الكتابة إحساناً بعيداً. دون أيّ غرابة فى اللّفظة، بل مع السّهولة واليسر. فسجْعُه خفيف، وكأنّه ينبوع غدق شراباً يمتع النفس، وكان يوشيه أحياناً بالألفاظ القرآنية مثل قوله "نقّت فى البلاد"[1].

(١) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٥٠٤ وما بعدها.

الأدب في ظلال الأيوبيين

لقد ورث الأيوبيون ملك الفاطميين ودولتهم، واقتفوا آثارهم في رعاية الأدب وتشجيع الشعر، وتنافس الأدباء ليصلوا إلى أعلى المناصب، ونيل موفور العطاء، وقد كان للاتصال المصري بالشام الأثر الكبير في نهضة الأدب وازدهاره، وكان لالتفاف الأدباء والشعراء في مصر والشام حول القائد المظفّر "صلاح الدين الأيوبي" أبلغ الأثر في النهضة الأدبية والشعرية؛ لأنه كان ذا بصيرة بالشعر والأدب، يستمع إليه، ويهتز له، ويجزل العطاء للشعراء، وكذلك كان خلفاؤه كرماً ورعايةً للأدب، واحتضاناً للشعر [1].

وقد استمر نشاط الشعر طيلة حكم الأيوبيين، وعُنيت كتب التواريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين، وفي مقدمتها هذا المصدر التاريخي الأدبي المهم "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" "لابن خلكان"، وأيضاً "فوات الوفيات" "لابن شاكر الكتبي"، ولا يكاد يوجد شاعر زمن الأيوبيين إلا وله ديوان مطبوع، فقد طبعت دواوين "ابن سناء الملك"، و"ابن النبيه"، و"البهاء زهير" وغيرهم [2].

ومن أشهر شعراء العصر الأيوبي "ابن سناء الملك"، الذي يقول عنه الدكتور "شوقي ضيف": "لا نبالغ إذا قلنا: إن "ابن سناء الملك" أكبر شاعر عرفته "مصر" في القرن السادس الهجري، ولد سنة خمسين وخمسمائة للهجرة، لأب متشيع كان يعمل في دواوين الفاطميين، وكان صديقاً "للقاضي الفاضل"، وأحاط الأب ابنه برعاية شديدة، وأحضر له "المربين"، والمثقفين، وقد تفتحت مواهبه الشعرية فقرّبه "القاضي الفاضل" إليه، وعيّنه في الدواوين، ولم يكن "ابن سناء الملك" شاعراً فحسب، بل كان كاتباً، وناقداً، وهو أول من اهتمّ من المصريين بصنع "موشّحات" على غرار الموشحات الأندلسية، وتحس في بعض شعره "المبالغة" الشديدة، خاصة في فخره، مثل قوله:

---

(١) دراسات في الأدب العربي ص١٠٣ : أ.د/ عبد عبد الرحمن، وأيضاً: قصة الأدب في مصر : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي – رحمه الله تعالى – بتصرف.

(٢) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص١٧٠ بتصرف.

سوايَ يخافُ الدهْر أو يَرْهبُ الرَّدى وغيري يَهْوَى أنْ يكونَ مخلَّدَا

ولكنَّني لا أرْهَبُ الدهرَ إنْ سَطَا ولا أحْذَرُ الموتَ الزُؤَامَ إذَا غَدا

ولو مدَّ نحوي حادثُ الدهرِ طَرْفهُ لحدَّثتْ نَفْسي أنْ أُمَدَّ لَهُ يَدا

وكان يميل إلى السهولة في شعره مع تحليته بألوان التصنع، ولم يعب منه مذهب التصنع ؛ إذ كان يتصنع على طريقة معاصريه للمصطلحات العلمية ، مثل قوله:

رأيْتُكَ بحراً طَبَّقَ الأرضَ مَدُّه فلم يَبْقَ عندي رُخْصةٌ في التَّيمم

كما نراه يكثر من من "اقتباس الآيات القرآنية الكريمة"، وذلك مثل قوله :

وقالوا لقد آنسْتَ ناراً بِخَدِّه فقلت وإنِّي ما وَجَدْتُ بِهَا هُدَى

ولا نبالغ إذا قلنا : إن موشحاته اروع من أشعاره، فقد كان يوفر لنا "النغم الحلو الرشيق"، مثل قوله :

البدر يحليك ولا تثنيك

بالفن أخيك للصدر أدنيك (١)

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٤٩٥ وما بعدها بتصرف .

ابن النبيه

ومن الشعراء المشهورين فى هذا العصر "ابن النبيه"، وهو "كمال الدين النبيه"، وقد ولد هذا الشاعر بمصر المحروسة سنة ستين وخمسمائة للهجرة "٥٦٠"، للهجرة، وحفظ القرآن الكريم فى الكتّاب، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء، فنضجت ملكته الشعرية، والتحق بدواوين "صلاح الدين الأيوبى"، ووزيره الكاتب البليغ "القاضى الفاضل"، ومدح بنى أيوب فى "مصر"، حتى اتصل "بالملك الأشرف"، فكتب له فى ديوان الإنشاء، واستمر فى خدمته حتى توفى سنة "٦١٩هـ" تسع عشرة وستمائة للهجرة النبوية الكريمة.

وهو شاعر حاضر البديهة، مليح النادرة، منسجم الأسلوب، حسن الوشى، مطبوع على البديع، فهو يتوخى الحلية اللفظية، ويشتد فى طلبها، بيْد أنه لا يتكلفها لجمال صياغته، وأسلوبه قوى الحياة، شديد الحركة، كثر التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، مثل قوله فى المديح:

فَحَرِيقُ جَمْرَةِ سَيْفِهِ لِلْمُعْتَدِي ... وَرَحِيقُ خَمْرَةِ سَيْبِهِ لِلْمُعْتَفِي

يا بَدْرُ تَزْعُمُ أَنْ تُقَاسَ بِوَجْهِهِ ... وَعَلَى جَبِينِكَ كُلْفَةُ المُتَكَلِّفِ

يا غَيْمُ تَطْمَعُ أَنْ تَكُونَ كَكَفِّهِ ... كَلاَّ وَأَنْتَ مِنَ الْجَهَامِ المُخْلِفِ

ولم يكن شعره يخرج عن أغراض ثلاثة: أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها فى عصره، وهى: المديح، والغزل، والوصف. وعلى الجملة فإن "ابن النبيه" شاعر عذب الروح، كثير الافتتان، مغرق فى المجاز، والتشبيه، والبديع، وكان مجيداً للمطالع، محسناً للتخلص، وله ديوان مطبوع فى بيروت – لبنان، وفى "مصر"[1].

---

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٣٩٩، عصر الدول والامارات (مصر والشام) ص٢٧١ وما بعدها: للدكتور/ شوقى ضيف.

البهاء زهير :

ومن مشاهير الشعر فى هذا العصر "البهاء زهير" ، وهو "أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى" المولود "بوادى نخلة" على طريق "مكة" . ثم رحل إلى "مصر" ، فنشأ بها وتأدب فلما بلغ أشده واستوى فى العلم والحسن برع فى النظم ، والنثر ، والخط ، واتصل "بالملك الصالح" ابن الملك "الكامل" الأيوبى ، ورافقه إلى الشام ، والجزيرة ، واتخذه وزيره ، وموضع سره ، حتى مات "الملك الصالح" فلزم "البهاء" داره حتى وافته منيته فى السنة التى سقطت فيه "بغداد" فى أيدى "التتار" ، وكان "بهاء الدين" دمث الأخلاق ، رقيق الطباع لين الجانب ، حلو الكلام ، فأثرت تلك الصفات فى شعره ، فجاء عذباً رقيقاً ، يطمع السامع أن يأتى بمثله لسهولته وقته ، فإذا حاول عجز ، فشعره فيض قريحته ، ووحى طبيعته وصورة بيئته ، ولم يقلد فيه أحداً ، ولم يطلب من غير شعوره مدداً ، فلا تجد فيه كلمة غريبة ، ولا جملة معقدة .. وليس فى معانى "البهاء" ابتداع ولا تخيل . إنما هى عادية كساها ألفاظاً سهلة ، وبث فيها من روحه الفياضة قوة التأثير ، ومن شعره فى الغزل قوله :

إن شكا القلبُ هجركم ∴ مهدد الحبُ عذركم

لو علمتم محلكم ∴ في فؤادي لسركم

قصروا عمر ذا الجفا ∴ طول الليه عمركم [1]

ابن الفارض :

ومن الشعراء الكبار فى هذا العصر : سلطان العاشقين "عمر بن الفارض" : وهو "أبو حفص عمر بن على" المعروف "بابن الفارض" . أصل آبائه من "حماة" ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ ، وتفقه فى الدين ، وتوسع فى اللغة والأدب ، حتى حاز منهما قسطاً وافراً . ثم وقع فى نفسه أن ينهج منهج الصوفية ، فاقتفى آثارهم ، وعرف أسرارهم ، وذهب إلى "مكة"

---

(١) تاريخ الأدب العربى : احمد حسن الزيات ص٥٠٣ . وعصر الدول والإمارات (مصر والشام) - د/ شوقى ضيف.

فزار البقاع المقدسة، ومكث بها زمناً، ثم رجع إلى "مصر"، فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكراه، حتى توفى بالقاهرة سنة ٦٣٢هـ.

نشأ فى عصر الأيوبيين، وهذا العصر تنازع النفوس فيه عاملان مختلفان: عامل التصوف والتقوى، لدوام الحروب وتعالى الكروب: من المجاعات، والموتان، وعامل الفسوق والمجون، لانحلال الأخلاق، وتحكم الشهوات، وانتشار المخدرات، واتجه الشعر فى "مصر" وفى غير "مصر" إلى هاتين الوجهتين، فهو إما أن يراد به الله، وإما أن يراد به الشيطان، و"ابن الفارض" قد نشأ نشأة دينية، وربى تربية صوفية، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم فى الشعر، وينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر، وذكر الغزل، مريداً بذلك الذات الإلهية على اصطلاحهم، فكان بذلك موجد الطريقة الرمزية فى الشعر العربى، وهو أكثر الشعراء تعملاً بالكلام، وتكلفاً للبديع وولوعة بالجناس والطباق، وأمير معاصريه شعراً: لرقته، واشتماله على ما يرضى المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن، ذاك بباطنه، وهذا بظاهره، ومن أشهر شعره نونيته الكبرى والصغرى، ومن شعره قوله فى الخمر – وفيها كثير من رموز الصوفية:

شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَةً ∴ سكرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكرْمْ
لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُديرُها ∴ هلالٌ وكم يبدو إذا مُزجَتْ نجم
ولولا شذَاها ما اهتديتُ لحانِها ∴ ولولا سَناها ما تصوّرها الوَهْمْ
يقولونَ لي صِفْهَا فأنتَ بوَصفِها ∴ خبيرٌ أجَلْ عندي بأوصافها علم
صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هَواً ∴ ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسْمْ (١)

(١)

(١) المرجع السابق ص٤٠١ وما بعدها.

الأدب في ظلال الدول الأخرى

نهض الأدب في كثير من الدول التي نشأت في العصر العباسي الثاني، غير تلك الدول التي أومأنا إليها آنفاً، ومن هذه الدول "الدولة الزيادية"، التي نبغ منها "قابوس بن وشمكير"، وكان أديباً شاعراً، تولى في عهد الخليفة "الطائع"، وقد لقبه الخليفة "شمس المعالي"، وكان محباً للعلماء والأدباء، وكان يرفض أن تنشد قصائد المديح بين يديه، ومن مؤلفاته "كمال البلاغة"، وهو مجموعة رسائل أدبية تمتاز بجمال عباراتها، والتأني في اختيارها، ويغلب على طابعها التأثر بطريقة "بديع الزمان الهمذاني".

ومن أشعار "قابوس" في الغزل قوله :

خطوات ذكرك تستثير صبابتي ∴ فأحس منها في الفؤاد دبيب

لا عضو إلا فيه صبابة ∴ فكأن أعضائي خلقن قلوب

وأسلوب "قابوس" في الكتابة يغلب عليه السجع، والمحسنات البديعية، والعناية بالتجنيس.

و"قابوس بن وشكير" معدود بين الأفراد الزياديين، وفي طبقة المجودين من الكتاب وكان ينزع إلى الأدب، ويكلف بالأدباء، ويجتمع الشعراء على بابه كل "نيروز" و"مهرجان"، فيرسل إليهم جوائزهم مع أحد أصحابه، ويقول له: "وزع عليهم الهدايا بحسب رتبتهم"، وكذلك كان حظ الأدب كثيراً في ظلال الدولة السامانية، والدولة القرنوية، فقد شجعوا الأدباء، وبالغوا في إكرام الشعراء، مجاراة ومنافسة للملوك المعاصرين لهم، ورغبة في أن تزدان بهم قصورهم ومجالسهم، ولكنهم كانوا دون "البويهيين" في الاحتفاء بالشعر، واجتذاب كثير من الشعراء إليهم؛ لبعد مزارهم عن قلب المواطن الإسلامية؛ ولأن أذواقهم أعجمية، وقد حاول "نوح بن منصور السامانى" أن يحتذب "الصاحب بن عباد"، ويستأثر به دون "البويهيين"، فراسله يعرض عليه ما يغريه بالرحلة إليه، والوزارة له لولا اعتذار "الصاحب" بما يشق عليه من نقل متاعه، ومن بينه كتبه التي تحتاج وحدها إلى أربعمائة حمل كما قال. ولعل بلاءهم يذكر في احتضار

الكتب، فقد ظهر فى كتابهم بعدها من يقاربون "ابن العميد" ، و"الصاحب بن عباد" فى الدرجة البلاغية، وإحياء الحركة الأدبية، مثل الوزير "البلعمى"، والوزير "الجيهانى" فى دولة "السامانيين"، ومن حولهم من آل "ميكال" الأمراء والكتاب والشعراء، ومثل "أبى القاسم الميونى"، و"أبى الفتح البستى" فى بلاط الغزنويين.

على الجملة فقد تعدد بتعدد الدول موارد الأدباء، وتبارى الملوك من العرب والمتعربين وما ساماهم من الأعاجم فى تقربهم، والاحتفاء بهم، فسعد العهد بعدد وافر من الأعاجم فى تقريبهم والاحتفاء بهم، وضن الإنتاج الأدبى بما لم يضارعه مثله من بعد وفى كل ركن ندوة أدبية، والأدباء يطوفون فى أرجائه تطواف البلابل فى الروض الأغن لها منه الزهر الندى والجنى الشهى، وله منها التطريب، والتفريد باللحن الفريد [1].

أبو الفرج الأصفهانى:

هو "على بن محمد بن أحمد القرشى الأصبهانى" ، ويكنى "أبو الفرج"، ولد سنة أربع وثمانين ومائتين للهجرة النبوية، وطلب العلم والأدب، وتأدب "ببغداد"، ويبدو أنه كان يعيش بعد ذلك حياة أديب جوّال، وقد نادم "سيف الدولة"، وكان أكثر الناس إيثاراً له "الوزير المهلبى معز الدولة بن بويه"، فانقطع إليه ومدحه، حتى توفى "ببغداد" سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة [2].

وكان هذا الأديب - على الرغم من ظرفه وأدبه – سليط اللسان، فاحش العبارة تتقيه الملوك والأمراء؛ لأنه كان عالماً بالمعايب والمثالب، وكان لا يغسل ثوبه ولا يبدّله وكان الوزير المهلبى يحتمل منه كل شئ؛ لعلمه وحسن حديثه، وحلاوة منطقه؛ حيث كان ملماً بأشتات العلوم. راوياً للأنساب والأشعار، وكان ثقة فيما يقول، وكان كاتباً معدوداً ومؤلفاً ضالعاً، وراوية أميناً، بيد أنه لم يكن مطبوعاً فى الشعر، وحسبه شرفاً وفخراً كتابه "الأغانى"، وقد أجمع الباحثون والمؤرخون على أنه لم يصنّف فى بابه مثله، وأن كل كاتب

---

(١) تاريخ الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى : د/ خفاجى ص٣٦ : ٣٧ .
(٢) تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ٦٨/٣ ، وأيضا : تاريخ الأدب العربى : للزيات ص٤١٣ .

فى الأدب لا غنية له عن مطالعة هذا المصدر الأدبى المهم، ولولا هذا الكتاب لضاع الكثير من أخبار الجاهلية، وصدر الإسلام، وعصر بنى أمية. وقد ألفه "الأصفهانى" فى خمسين سنة، وبناه على "خمسين صوت" التى اختيرت للخليفة "هارون الرشيد"، وزيدت للخليفة "الواثق"، وعلى ما اختاره هو من عيون الأغانى. وقد حمله إلى "سيف الدولة الحمدانى" فأعطاه ألف دينار، واعتذر إليه، وكان "الصاحب بن عباد" إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً، فلمَّا اقتناه استغنى به عنها [1].

ويقول "ابن النديم": "وله من الكتب "كتاب الأغانى الكبير"، وهو نحو خمسة آلاف ورقة، ثم كتب "مجرد الأغانى"، وكتاب "مقاتل آل أبى طالب"، وكتاب "تفضيل ذى الحجة"، وكتاب "الأخبار والنوادر"، وكتب أدب السماع [2].

يقول الأصفهانى مخاطباً الوزير "المهلبى":

فداؤك نفسى هذا الشتاء ∴ علينا بسلطانه قد هجم

ولم يبعد من نشى درهم ∴ ولا من ثياب إلا رمم

يؤثر فيها نسيم الهواء ∴ وتحرقها خاقيات الوخم

فأنت العماد ونحن العفاة ∴ وأنت الرئيس ونحن الخدم [3]

وهذا الشعر مدون فى كتابه "الأغانى"، يقول "أبو الفرج": "ومن حكى أنه صنع فى شعره وشعر غيره "المنتصر"، فإنى ذكرت ما روى عنه أنه غنى فيه على ضعف الصنعة. لئلا يشذ عن الكتاب شئ قد روى وقد تناوله الناس، ومما ذكر عنه أنه غنَّى فيه :

سقيت كأساً كشفت ∴ عن ناظرى الخمرا

فنشطتنى ولقد ∴ كنت حزيناً خائرا [4]

---

(١) تاريخ الادب العربى لكارل بروكلمان "مرجع سابق"، وتاريخ الأدب العربى : للزيات ص٤١٣ .

(٢) ينظر: أبو الفرج الأصبهانى وكتابه "الأغانى" : لمحمد عبد الجواد الأصمعى، نقلاً عن الفهرست لابن النديم ص١١٥.

(٣) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٤١٥ .

(٤) ابو الفرج الأصبهانى وكتابه الأغانى ص٣٤١ نقلاً عن الأغانى ٣٠٠/٩ ــ ط: دار الكتب .

النثر

ازدهار النثر وأسبابه :

فى هذا العصر انقسمت الدولة العباسية إلى دويلات وإمارات، وكان لهذا الانقسام أثره البالغ فى ازدهار فنون النثر، وتنوع ألوانه، وقد بلغ النثر قمة الرقى والازدهار فى هذا العصر، وذلك للأسباب الآتية :

١ – ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى هذا العصر، فقد أثمرت العلوم العربية المترجمة وآتت أكلها، فظهر أثر ذلك فى تنمية الأذواق، وسعة الخيال.

٢ – لم تكن "بغداد" وحدها هى العاصمة التى يقصدها الأدباء والكتاب والشعراء، بل كانت هناك عواصم أخرى قصدها الأدباء والعلماء فى هذا العصر، فكان حكام وأمراء "مصر" و"الشام" و"بلاد ما وراء النهر" يتنافسون فى تشجيع الأدب، واجتذاب الأدباء.

٣ – الثراء والنعيم والترف الذى ساد أرجاء الدولة العباسية، وما ضمته من دويلات كان له أثره فى رقى الكتابة الفنية وازدهارها، ومن مظاهر هذا الرقى : رقة الألفاظ والاهتمام بالزينة اللفظية، والتأنق فى العبارة.

٤ – لم تقتصر الكتابة الفنية على بعض الموضوعات، بل تعددت موضوعاتها وأغراضها، فشملت موضوعات كثيرة وأغراضاً عديدة، أملتها ظروف العصر وتطور المجتمع.

على أنه فى أواخر هذا العصر بدأ يتسلل إلى الكتابة الانحطاط والاضمحلال، ولعل من أسباب ذلك: كثرة المحسنات البديعية التى أغرق الأدباء فيها، فكبلوا أساليبهم بها وانتشار العجمة فى البلاد التى تولى حكمها الأعاجم، وطغيانها على اللغة الفصحى، كما أن هؤلاء الحكام الأعاجم لعدم فهمهم للغة العربية، وتذوقها لم يشجعوا الأدباء، ولم يحتفوا بالأدب، وإن كان بعضهم قد اهتم بالأدب، وكان له ذوق وفهم للشعر، إلا أن هؤلاء قلة.

وأنواع النثر التى كانت قبل هذا العصر من النثر العلمى والفلسفى والأدب والمناظرات، والمواعظ، والقصص، والأدب التهذيبى، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية، كل هذه الأنواع ازدهرت فى هذا العصر، وخاصة القرنين الرابع والخامس ولا نبالغ إذا قلنا: إنهما كانا أزهى القرون فى العصر بالقياس إلى النثر وفنونه، وقد بلغ العقل العربى كل ما كان يُرجى من نضج، وظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف، وظل يتغذى بها وينمو، ولم يلبث أن شارك فيها، وأصبح للعرب علماؤهم وفلاسفتهم، حتى بلغ القمة فى مطلع هذا العصر[1].

وفى أخريات هذا العصر بعد أن ضعفت الخلافة، وقام بالأمر غير أهله، سرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، فمالوا إلى زخرف القول، وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا فى ذلك حتى سمجت مبانيهم، وفسدت معانيهم، فكانت مموهة الظاهر، مشوهة الباطن، كسيف الخشب فى غمد الذهب، وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم[2].

ومن أشهر أعلام النثر فى هذا العصر "ابن العميد"، و"الصاحب بن عباد"، و"الوزير المهلبى"، و"الخوارزمى"، و"الصابئ"، و"الثعلبى"، والقاضى الفاضل"، و"الشريف الرضى"، وأبو حيان التوحيدى.

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٤٣٠ - بتصرف.
(٢) تاريخ الأدب العربى: احمد حسن الزيات ص٢٤٠.

أبو حيان التوحيدي :

هو فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة "أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي" ، وقد اختُلف في مسقط رأسه ، وتاريخ مولده ، وتاريخ وفاته : فقيل: ولد "بشيراز" بـ "فارس" ، وقيل: "بنيسابور" "بخراسان" ، وقيل: "بواسط" بجنوبي "العراق" وقيل: "ببغداد" ، وهو القول الراجح في رأينا ؛ إذ لم يذكر كثير من مترجميه أنّ أباه كان يبيع نوعاً من التمر "ببغداد" يُعرف باسم التوحيد ، وعليه حمل شراح "المتنبي" قوله :

يترشّفنَ من فمي رشفاتٍ هُنّ فيهِ أحلى من التوحيدِ

وكأنه هو وأبوه قد نُسبا إلى هذا التمر ، وخطأ ما ذهب إليه "ابن حجر" وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى توحيد تعني أنه من أهل العدل والتوحيد ، أي من المعتزلة.

اختلف إلى الكتّاب في طفولته ؛ ليحفظ القرآن والشعر ، ويتعلم الخط والحساب ومن أساتذته "أبو سعيد السيرافي" ، و"علي بن عيسى الرماني" ، و"أبو بكر الشافعي" و"يحيى بن عدي" تلميذ "الفارابي" ، وغيرهم.

وكان "أبو حيان" وراقاً يكتب للناس بالأجر ، يقرأ ما يكتبه فيلصق بذاكرته ، فاتسعت ثقافته ، ومن الكتب التي كان معجباً بها كتب "الجاحظ" ، وبخاصة كتاب "الحيوان" ، وعندما أحس بمقدرته الأدبية قصد "ابن العميد" في "الري" ؛ علّه يجد عنده علماً ، لكنه لم يوفّق في هذه الرحلة التي استمرت ثلاث سنوات ، فعاد خالي الوفاض ، ومما يذكره أنه لجأ إلى التأليف مستفيداً مما قرأ خلال اشتغاله بالوراقة ، فألّف كتاب "البصائر والذخائر" ، وهو على نمط "البيان والتبيين" "للجاحظ"[1].

وذكر "كارل بروكلمان" أن "التوحيدي" توفي بعد سنة ٤٠٠هـ ، وقيل : توفي في حدود سنة ٣٨٠هـ [2]

ومن أشهر مؤلفات "التوحيدي" : كتاب "الإمتاع والمؤانسة" ، فقد كان يتخذ له مجلساً

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٤٥٣ وما بعدها .
(٢) تاريخ الأدب العربي ٤/٣٣٦ .

علمياً فلسفياً أدبياً؛ للحوار ليلاً فى كل ما يتصل بالإلهيات، والطبيعيات، والأخلاق وعلم الكلام، واللغة، والشعر، فقد ذكر "أبو حيان" العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يحاورونه فى هذا المجلس بكتابه "الإمتاع والمؤانسة"(١).

ويُعدّ "التوحيدى" من أعظم أدباء "العراق" فى القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته؛ حيث تناول فيه كثيراً من جوانب التفلسف، والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعيات، والإنسان، والأخلاق، والنفس، فأدبه ليس لفظاً، بل هو أدب يحمل زاداً كثيراً من المعانى، وقد أشار مراراً فى "الإمتاع" وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يعنى بالألفاظ، وقد أداه ذلك إلى أن ينفصل عن مواجهة السجع التى سادت الكتابات الأدبية فى أيامه؛ إذ رأى فيها طلباً للفظ أو الألفاظ، والاستعلاء لها على المعانى.

وقد راعه أسلوب "الجاحظ" وأدبه؛ إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتى والمعانى، مستخدماً أسلوب الازدواج الذى عُرف به. وقد يتخلله فى الحين البعيد بعد الحين السجع. ولكن دون التزامه، ودون الإكثار منه، فاستقر هذا الأسلوب فى نفس "أبى حيان". وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته، ويبلغ فيه ذروته من الجمال الصوتى لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند "الجاحظ"، وهو يتسع اتساعاً واضحاً فى أسلوبه بالترادف، وما يتبعه من التقطيع الصوتى، ولنقرأ هذه الفقرة فى فاتحة الرسالة التى توسّل بها إلى "أبى الفتح بن العميد":

"اللهم حيِّ لى من أمرى رشداً، ووفقنى لمرضاتك أبداً، ولا تجعل الحرمان علىّ رصداً. أقول - وخير القول ما انعقد بالصواب، وخير الصواب ما تضمن الصدق. وخير الصدق ما جلب النفع. وخير النفع ما تعلق المزيد. وخير المزيد ما بدا عن شكر. وخير الشكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق. وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق".

---

(١) عصر الدول والإمارات ص٥٨٤.

وقد بدأ "أبو حيان" الرسالة بالسجع، وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج، معادلاً بين كل عبارة وتاليها، معادلة صوتية دقيقة، وليس ذلك فحسب، كأنه يستغل قدرته الفكرية فى تفريغ الجمل بعضها من بعض؛ إذ بدأ بالصواب، وجعله ينتهى بالتوفيق، ونحس كثيراً إزاء ازدواجات "أبى حيان" وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قرائه وكان عجباً له أن هذه الرسالة التى كتبها "لأبى الفتح" لقيت فيه إعراضاً، وعرف أن السبب فى ذلك أنها لم تُكتب بلغة السجع التى كانت سائدة فى عصره، إنما كتبت بأسلوب "الجاحظ"[1].

(١) السابق ص٤٦١.

الكتابة الفنية

ازدهار الكتابة وأسبابه وأشهر الكتاب :

لقد ازدهرت الكتابة الفنية فى عصر "الدويلات"، وتنوعت ما بين رسائل شخصية ورسائل ديوانية، ومؤلفات، ومواعظ، وخطب دينية، ومحاورات، ورسائل فكاهية، وقد باتت أسباب ازدهارها واضحة جلية لمن يقوم بدراسة هذا العصر. فإن اتساع نطاق الدولة وانتشار الدويلات فى أرجائها كان مدْعاة لازدهار الكتابة، وذلك للحاجة الملحة لإدارة شئون الدولة عن طريق الرسائل والتوقيعات. كما أن من أسباب ازدهارها هذا الاتصال بين الثقافات العربية، والثقافات الأجنبية الوافدة، ذينكم الاتصال الذى أثمر شجره، ونضج ثمره. وآتى أكله فى هذا العصر. كما كان من بين أسباب الازدهار انتشار الثقافة. وكثرة دور التعليم. وظهور المكتبات. والإقبال على العلم والتعلم، مما دفع العقول إلى التفكير وكان لانتشار "دواوين الإنشاء" وتنوعها فى عصر الدويلات، وكثرتها من العوامل المهمة لازدهار الكتابة فى هذا العصر. فقد كان هناك "ديوان الخليفة"، و"ديوان الزمام"، و"ديوان الضّياع"، و"ديوان الجيش"، و"ديوان الأوقاف"، و"ديوان النفقات"، ولم تكن تلك الأقاليم فى "فن الكتابة" تسير على وتيرة واحدة فى الازدهار، ومثال ذلك: أنّ "نَجْداً" لم يكن لها نشاط يذكر فى هذا الفن، أما غير "نَجْد" من مدن "الحجاز"، وخاصة "مكة"، و"المدينة" فإن فن الكتابة كان فيهما مزدهراً، ولا غرو فى ذلك؛ حيث إن "مكة" و"المدينة" كانت كل واحدة منهما تمثل جامعة إسلامية تعجّ بالعلماء والأدباء وطلاب العلم من كل حدب وصوب، وكان أمراء "مكة" فى ذلك العصر يتخذون كُتّاباً للإنشاء يكتبون لهم ما يريدون من رسائل فى مخاطبة "سلاطين مصر"، وحكّام "اليمن" و"العراق" [1].

وعن ازدهار الكتابة فى إقليم "اليمن" فى هذا العصر يقول الدكتور/ "شوقى ضيف": "ولعل قُطْراً فى الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت

---

(١) محاضرات فى الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٨١ وما بعدها.

فى "اليمن"، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة "الصليحية"، و"الإسماعيلية" سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، واثنتان وثلاثون وخمسمائة للهجرة(٤٣٩ – ٥٣٢هـ) ؛ إذ كانت تتخذ لنفسها "ديواناً للإنشاء"، ومن كبار الكتّاب فيه "الحسين بن على القيم" الشاعر النابه [١].

ويقول عن ازدهار الكتابة فى إقليم "عُمان": "وظلّت عمان تحتفظ بنشاط كتابى طوال العصر، وقد عنى "نور الدين السالمى" بعرضه فى كتابه "تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان"[٢]، وفى إقليم "مصر" يعظم "ديوان الإنشاء" حين يستولى "الفاطميون" على مقاليد الأمور، وذلك لاتساع دولتهم من أقاصى "المغرب" إلى "نهر الفرات"، وامتداد سلطانهم إلى "الحجاز" و"اليمن" أيضاً، فكان طبيعياً أن يهتموا اهتماماً واسعاً "بديوان الإنشاء"، وقد بلغ من اهتمامهم به أن ألحقوا به دائماً "كبار النحاة"، و"اللغويين" لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان، وكان ممن اختاروه فى ذلك "ابن بركات" و"ابن برى" النحوى المشهور، وكان لمن يلتحق "بديوان الإنشاء" مكانة كبيرة فى عهد الأيوبيين، ويتولاه للقائد المظفّر "صلاح الدين الأيوبى" "القاضى الفاضل" مع قيامه على وزارته، ويشرك معه "العماد الأصفهانى" فى الكتابة، أما فى إقليم الشام فقد ظل كثير من بلدانها تابعاً "لمصر" فى زمن "الدولة الفاطمية"، ولم ينشأ حينئذ فى "دمشق" أو غيرها "ديوان إنشاء" ينهض الكتّاب فيه بالكتابة الديوانية حتى إذ أطلّ "دمشق" حكم دولة "الأتابكة" (٤٩٧ – ٥٤٩هـ) رأيناها تعنى بهذا الديوان، ولعل أهم كتّابهم "صفى الدولة"، ومن أشهر الكتّاب فى الجزيرة العربية فى هذا العصر "أبو إسحاق الصابئ"، و"أبو حيان التوحيدى"، و"الحريرى"، والخوارزمى"، و"ابن العميد"، و"الصاحب بن عباد"، و"بديع الزمان الهمزانى".

---

(١) عصر الدول والامارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٢٠٣ .
(٢) محاضرات فى الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٥١ وما بعدها .

ثقافة الكتاب

تعددت ثقافة هؤلاء الأعلام فى هذا العصر بتعدد العلوم والثقافات وانتشارها فشملت الثقافة الدينية، والعلوم الداخلية التى ترجمت، وشملت أيضاً الإلمام بسياسة الملك وتدبيره، وبالنظم الاقتصادية التى تسير عليها الدولة، من جباية الخراج، وتحصيل للجزية وحساب للأموال، والمصارف والموارد، ومن ثم عب الكتاب من كل ميادين الثقافة واتصلوا بالفلاسفة والمناطقة، وشاركوهم فى الإلمام بمسائل هذين العلمين، وفى الإحاطة بفروعهما، وكان الأدب فى رأيه هو الأخذ من كل فن بطرف، ويروى عن "الصابئ" أنه كان مع معرفته بأحكام الإسلام وإحاطته بثقافة العربية وآدابها، واتسع العلم بالهندسة والهيئة، والرياضيات، وكذلك كان "ابن العميد" متفوقاً مع الثقافة الأدبية الواسعة فى الفلسفة والمنطق والهندسة والطبيعة، والتصوير وغيرها.

ويورى "ابن مسكويه" عنه أنه كان أكتب أهل عصره، وأجمعهم للكتابة، وحفظاً للغة والغريب، وتوسعاً فى النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعر وشعراء الجاهلية والإسلام، وأما تأويل القرآن الكريم، وحفظ مشكله ومتشابهه، والمعرفة بأخلاق فقهاء الأمصار فكان منه أرفع درجة، وأعلى رتبة.

وكذلك كان "الصاحب" من المحدثين المتكلمين من المعتزلين، متبحراً فى علوم اللغة بصيراً بالنقد، مشاركاً فى الطب... وكذلك الأمر فى "الخوارزمى"، والبديع، و"أبى حيان التوحيدى" الذى كان يلقب "بالجاحظ الثانى"، وسواهم [1].

مذهب "ابن العميد فى الكتابة وخصائصه :

التعريف به : "أبو الفضل محمد بن العميد بن أبى عبد الله الحسين" الكاتب. فارسى الأصل، من مدينة "قم"، كان أبوه مترسلاً بليغاً، فنشأه على الأدب، ودرّبه على الكتابة وغذاه بالعلم، فبرع فى الإنشاء والترسل، وتوسع فى الفلسفة والنجوم، وكان وزيراً "لركن الدولة بن بويه الديلمى"، ويسمى "ابن العميد" بين الأدباء "الجاحظ الثانى". توفى سنة

---

(١) دراسات فى الأدب العباسى ص١٢٨ وما بعدها : د/ عيد عبد الرحمن.

٣٦٠هـ[١].

مذهبه في الكتابة وخصائصه :

كان عصر "ابن العميد" عصر تأنق ورخرف، وقد استحدث أسلوباً جديداً، متناسب الفِقَر، أنيق الديباجة، بديع الوشي، وكان متفنناً في أسلوب الكتابة، متفنناً في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة، بدئت الكتابة "بعبد الحميد"، وختمت "بابن العميد".

وهو إمام الطبقة الثالثة: التي تميل إلى إثارة الوجدان، ويلتزم أصحابها السجع القصير، والجناس، وتضمين الملح من التاريخ والعلوم، والتوسع في الخيال والتشبيه، مع إجادة المعنى وسلامته، ومن رجالها : "الصاحب بن عباد"، و"الخوارزمي"، و"الصابئ" وغيرهم[٢].

ويقول الدكتور / "شوقي ضيف" في مذهبه وخصائصه: "من يقرأ ما اقتبسه من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها، وهي صيغة قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع وكان معروفاً من قبله في الدواوين العباسية، ولكنه أدخل عليه ضروباً من الموازنة في السجعتين المقولتين، والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع، فالسجع وحده لا يكفي ،بل لا بدّ أن تضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق، وما إلى ذلك من محسنات البديع ... وسنسوق مثالاً لذلك من كتاب كَتَبَه عن "ركن الدولة بن بويه" إلى "ابن بلكا" عند عصيانه عليه ، مغتنمها لكلامه بقوله: "كتابي إليك، وأنا متأرجح بين طمع فيك، ويأس منك ، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرها يوجب حقاً ورعاية. ويقتضي محافظة وعناية. ثم تشفعها بخارث غلول وخيانة، وتتبعها بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط

---

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ١١٩/٢ ، وتاريخ الأدب العربي : احمد حسن الزيات ص٢٦١

(٢) المرجع السابق ص٢٤١ وما بعدها

أعمالك، ويسقط كل ما يدعى لك".

وهذا مثال من كتاباته بين لنا المنهج الذى اتبعه "ابن العميد" فى كتابه، حيث يلتزم السجع، ويوازن بين السجعات، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية، وجعلها موازنة لها أدق موازنة، مسجعة "تدل بسابق حزمة" توازنها فى دقة السجعة التالية لها "تمت بسالف خدمة".

كما أنه يكثر من الطباق، مثل "طمع .. ويأس" كما يكثر من الجناس، مثل: "سابق .. سالف"[1].

مدرسة " الصاحب بن عباد " :

"أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس الصاحب"، وسمى بذلك لأنه كان صاحب "مؤيد الدولة"، ويكنى "أبو القاسم"، ويلقب "بالصاحب" كافى الكفاية. وقد ولد فى "اصطخر". وقيل: إنه ولد فى "الطالقان" سنة أربع وعشرين وثلاثمائة للهجرة النبوية الكريمة، ودرس على أبيه "بالرى"، وأخذ عنه مذهبه الدينى والسياسى، وأكمل دراسته بعد ذلك "ببغداد". فلما آب إلى وطنه بدأ حياته العلمية فى ديوان الوزير "أبى الفضل بن العميد". وكانت مدة وزارة الصاحب ثمانى عشرة سنة وشهراً استطاع فيها أن يشجع العلم والأدب، وكان كثير البر للأدباء والعلماء، وكان هو أيضاً كاتباً وشاعراً. توفى "بالرى" سنة ٣٨٥هـ[2].

وقد سار "الصاحب بن عباد" على مذهب أستاذه "ابن العميد"، وزاد عليه فى الزينة اللفظية، ولاسيما فى السجع والجناس، حتى قيل فيه: لو أن سجعه تُنْحَلُّ بموقعها "عروة الملك". ويضطرب بها حبر الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها، وقد كان له ذوق سليم فى صوغ الشعر، ونظر صادق فى نقده، ولم تقصه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف فى اللغة كتاب "المحيط" فى سبعة مجلدات، وكتاب "الإمالة"، والكشف

---

(١) عصر الدول والامارات (الجزيرة العربية – العراق – ايران) : د/ شوقى ضيف ص٦٥٦ .
(٢) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ١٦٨/٢ وما بعدها .

عن مساوئ "المتنبي"، وغير ذلك، وأكثر فضله في تشجيع الأدباء، وتنشيط العلماء وإذكاء شعلة الأدب [1].

ويقول الدكتور/ شوقي ضيف عن أهم خصائص رسائله : "إن الصورة العامة لرسائله هي السجع، والبديع، والتفنن في استخدامها تفنناً يدل على مهارة واسعة، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه، وسجية من سجاياه.

من رسائل "الصاحب" تهنئته بميلاد طفلة :

"أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار والأولاد والأطهار والمبشرة بإخوة يتناسقون، نجباء يتلاحقون.

فلو كان النساء مثل هذى ∴ لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ∴ ولا التذكير فخر للهلال

فادرع يا سيدي اغتباطاً، واستأنف نشاطاً، فالدنيا مؤنثة، ومنها خلقت البرية، وفيه كثرت الذرية، والسماء مؤنثة، وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، ولها بعث المرسلون، فهنيئاً هنيئاً ما أدليت، وأوزعك الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد، وما بقي الأبد، وكما عمر لبد [2].

أبو القاسم إسحاق الصابئ :

"إبراهيم بن هلال بن إبراهيم" ، يكنى "بأبي إسحاق"، أصل آبائه من "حران"، ولد "ببغداد" سنة ٣١٣هـ، وكان "عز الدولة البويهي" دعاه إلى الإسلام ليجعله وزيراً له، فأبى ويبدو أنه أحس في نفسه مبكراً نحو الأدب، وأن يصبح من كتاب الدواوين، فأخذ يكب على ديوان الرسائل، وحاول "عز الدولة" أن يدخله في الدين الحنيف، فكان يعتذر، وكان

---

(١) تاريخ الأدب العربي : د/ أحمد حسن الزيات ص٢٦٦.
(٢) المنتخب من أدب العرب: للدكتور / طه حسين وآخرين ١٤٨/١.

يصوم شهر رمضان مع المسلمين، وتوفى سنة ٣٨٣هـ [١].

وقد نشر "شكيب أرسلان" مختارات من رسائله فى مجلدين، وهى مطبوعة بطوابع السجع، والمحسنات البديعية، وفيها يقتبس من القرآن الكريم، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية، وبعض الأشعار القديمة والحديثة، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل، حتى ليظن قارئوه أنه من جلة المسلمين، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

" الحمد لله العلى العظيم، الأزلى القديم، المتفرد بالكبرياء والملكوت، المتوحد بالعظمة والجبروت، الذى لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السماوات وما تظل، وخالق الأرض وما تقل .

وقد أشاد "ابن الأثير" برسالة "الصابئ" التى أعلن فيها عزل الخليفة "المطيع بأمر عز الدولة"، يختار "البويهى"، وهى نموذج أساليب النثر الفنى، المبنى على أسس المبادئ الفقهية [٢].

الثعالبي :

هو "عبد الملك بن محمد بن إسماعيل" ، ويكنى "أبو منصور الثعالبى"، وهو لغوى وأديب عباسى. وقد وُلد "بنيسابور" سنة "خمسين وثلاثمائة" للهجرة. وقد برع فى اللغة والإنشاء، والتدوين الأدبى، والتراجم ، وانصرف إلى التدوين فيها جميعاً، وأشهر مؤلفاته "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر"، وهو ديوان تراجم وشعر لأشهر مشاهير الشعراء وكتاب "أحسن ما سمعت"، وغير ذلك من الكتب، وتوفى "الثعالبى" سنة "تسع وثلاثين وأربعمائة" للهجرة الكريمة، وقد أخذ "الثعالبى" فيما أخذ فيه من أهله من العمل، ولكن نفسه المتوثبة، ورغبته العارمة فى العلم والمعرفة حببت إليه أن يطلع، ويدرس فعكف على هذا التراث الطيب بنفس متشوقة، ولكنه ما كاد يرقى أول "الدرج" حتى وجد نفسه مطالب

---

(١) الأدب العربى : بروكلمان ١١٩/٢ ، وعصر الدول والإمارات : د/ شوقى ضيف ص٤٤٣ .
(٢) القاموس الاسلامى : للدكتور/ أحمد عطية الله ص٥٢٥

بما تطالب به الحياة الناس، من جد يتطلبه الرزق، وجهد تفرضه لقمة العيش، فاشتغل معلماً للصبية، حتى استطاع أن يلحق بركب الملوك، وأن يخدمهم بكتبه، فقد ضمه "بلاط الأمير شمس المعالى "قابوس بن وشمكير"، واتصل "بالصاحب بن عباد" ، وخدمه بكتابه "لطائف المعارف"، واستطاع ذكاؤه وثقافته أن يجعل مكانة طيبة فى البيت "الميكالى" وأصبح "أبو منصور" صديقاً وفياً للأمير "أبى الفضل عبيد الله الميكالى"، وقد أتاحت له تلك الحياة من أسباب الثقافة ما لم يُتح لغيره، كما أتاحت له أن يجالس الخاصّة، فأصبح عملاقاً من أدباء عصره، ولا غَرْو أن نراه وقد تفرّد بتسجيل الأدب العربى خلال هذه الفترة ولا غرابة فى أن نحسّ بهذا الجمال المتدفق، ونحن نطالع كتبه حيث إنك ترى فيها تراث العرب وقد عرض عرضاً جديداً يجذب النفوس نحوه، ويأخذ بالقلوب إلى رِحابه، وقد رزق "أبو منصور الثعالبى" القبول والنجاح ما مكّن له فى قلوب معاصريه، ثم فى قلوب من أتوْا بعدهم من الأدباء والمؤرِّخين. وهو كما يقول "الحصرى" : فريد دهره، وقريع عصره، ونسيج وحده. وهو كما يقول عنه "ابن بسّام" صاحب "الذخيرة": "رأس المؤلّفين فى زمانه، وإمام المصنّفين بحكم أقرانه، سار ذِكْره سَيْر المثل، وضُربت إليه آباط الإبل وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب ... وقد كان يقول الشّعر على طريقة المتأدّبين والكتّاب المترسّلين، فهو يعدّه فناً له أشكاله وقوانينه أكثر منه فناً يعتمد على الإلهام وانتفاضة الشعور، ومن هنا جاء شعره أقرب إلى الصّنعة، وألْصَق بالمحسّنات اللّفظية[1].

الخوارزمي :

هو "محمد بن عباس الخوارزمى" ، ويكنى "أبو بكر"، وكان أصل آبائه من "طرستان"، وولد "بخوارزم" سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة النبوية الكريمة ثم فارقها وهو فتىّ السّن لابتغاء العلم، والتماساً للرزق، وتقلّب فى خدمة كثير من الملوك والأمراء. ولقى "سيف الدولة" وخدمه بالشام، واستوطن فى "نيسابور"، واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين، ناعم البال بين مجالس الدرس، ومجالس الأُنس، وفى آخر عمره نافسه "بديع

(١) مقدمة كتاب التمثيل والمحاضرة لأبى منصور الثعالبى: للأستاذ / عبد الفتاح محمد الحلو .

الزّمان الهمذانى"، وكان هذا أحدث منه سناً، فزعزع مكانته، وغض من جاهه، وتوفى – رحمه الله تعالى – سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة للهجرة [1].

وكان "الخوارزمى" يتمتع بمكانة سامقة فى الأدب والكتابة، كما كان يتمتع بسرعة الحافظة، وقوة الذاكرة، وشاع ذلك حتى قيل: "إنه قصد "الصاحب بن عباد"، فلمّا وقف ببابه وهمّ الحاجب إلى "الصاحب"، وقال: "إن بالباب أديباً يستأذن فى الدخول" فقال الوزير: "قل له: ألزمتُ نَفْسى ألا يدخل علىّ إلا أديب يحفظ "عشرين ألف بيت" من شعر العرب". فقال "أبو بكر" للحاجب: "ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك "الصاحب بن عباد" قال: "هذا أبو بكر الخوارزمى"، وكان "الخوارزمى" مع ذلك إماماً فى اللغة، عالماً بأشعار العرب وأخبارها، واقفاً على أسرار اللسان، وخواص التراكيب، و"الخوارزمى" فى النثر يُعدّ من طبقة "ابن العميد"، وشعره بين الجيّد والرّديء [2].

وقد روى صاحب "يتيمة الدهر" نماذج من شعره. أمّا رسائله المسجوعة فى كل فن من الفنون الأدبية، فقد وُصفت باسمه، وخلّدت ذكره [3].

ومن كلامه: "الرجال حصون، ينبيها الإحسان، ويهدمها الحرمان. وينبع بشرها السر واليُسر، ويمحقها الخفاء والكبر. وإنه لا مال إلا برجال. ولا صُلح إلا بعد قتال والجبان مقتول بالخوف قبل أن يُقتل بالسّيف. والشّجاع حىّ وإن خانه العمر، والجبان وإن عيّه القدر. ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب".

ومن شعره فى الحكم:

لا تصحب الكسلان فى حالاته ∴ كم صالح بفساد آخر يفسُدُ

---

(١) تاريخ الأدب العربى: لكارل بروكلمان ٢/١١٠، وتاريخ الأدب العربى: لأحمد حسن الزيات ص٢٦٨.

(٢) تاريخ الأدب العربى: لكارل بروكلمان ٢/٢٦٨.

(٣) السابق ٢/١١٠.

عذوى البليد إلى الجليد سريعةٌ ∴ والحمر يُوصع فى الرّماد فيخمد[1]

وقد خلّف "الخوارزمى" ديوان رسائل كبير، وفى كتاب "يتيمة الدهر" "للثعالبى" طائفة كبيرة من أشعاره فى النسيب ، والغزل ، والمديح ، والرثاء ، وفى فنون متباينة وفى مقدمتها "الهجاء"[1].

القاضى الفاضل :

هو "أبو على أبو عبد الرحيم" ، ولد بمدينة "عسقلان" "بفلسطين العربية" ، وأخذ العلم عن أبيه "قاضى عسقلان" ، ثم وفد إلى "مصر" فى أواخر الدولة الفاطمية ؛ ليتعلم الكتابة فى الديوان، ورحل إلى مدينة "الإسكندرية" ، فدخل "ديوان ابن حديد" ، وكان يومذاك قاضيها، ثم قدم "القاهرة" ، وكتب فى "ديوان الظّافر" ، وبعد قيام الدولة الأيوبية استوزره الملك "صلاح الدين الأيوبى" ، وقد توفى سنة "خمس وتسعين وخمسمائة" للهجرة، وقد كانت له منزلة سامقة، ومكانة باسقة فى الكتابة، فقد خالط "القاضى الفاضل" الكتّاب فى مختلف البلدان، ووقف على المناصب الكتابية المتباينة فى "الشام" و"العراق" ، و"مصر" ، فجرّته المحاكاة ، والمفاضلة ، وقوة الشخصية إلى ابتكار طريقة جديدة، نماها على أصول طريقة "ابن العميد" ، وكانت مُغرقة فى "التورية" ، و"الجناس" حتى أصبحت الكتابة فى عهده طِلاءً خدّاعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السّقيم، وقد اقتفاها عبّاد الصنعة من أشباه الكتّاب[2].

ومن كلامه الدّالّ على ما أومأنا إليه آنفاً قوله وهو يصف فيضان النيل من رسالة قال: "وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الأصبع إلى الذراع، وكأنما غَارَ على الأرض فغطّاها، وغَارَ عليها فاستنفقدها وما تخطّاها، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب إلا إياه"[4].

---

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص٢٦٩ وما بعدها .
(٢) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – ايران) : د/ شوقى ضيف ص٥٩٨ .
(٣) تاريخ الأدب العربى : للزيات ص٢٧٩ وما بعدها .
(٤) المنتخب من أدب العرب: للدكتور / طه حسين وآخرين ١٨٢/١ .

"العماد الأصبهاني" :

هو "عماد الدين محمد بن محمد"، ولد "بأصبهان" سنة ٥١٩ للهجرة. وفد به والده إلى "بغداد"، واستقر بها، والتحق بالمدرسة "النظامية"، وتفقه بها، وثقف علوم العربية وعاد مع أبيه إلى "أصبهان" سنة "اثنتين وخمسين وخمسمائة" للهجرة، ثم آب إلى "بغداد" وتولى نظر "البصرة"، ثم نظر "واسط"، وفى سنة "ستين وخمسمائة" للهاجرة سُجن "العماد الأصبهانى" مع من سُجن من أتباعه، وفى سنة "اثنتين وستين وخمسمائة" للهجرة نزل "مشق" فى المدرسة "النورية"، وزار "مصر"، ثم عاد إلى "دمشق"، فلزم داره يصنّف ويؤلّف حتى توفى – رحمه الله تعالى – فى سنة "سبع وتسعين وخمسمائة" للهجرة [١].

وخصائصه الفنية فى الكتابه : أنه يعد من رجال الطبقة الرابعة التى تزعمها "القاضى الفاضل". وقد نهج "العماد الأصبهانى" نهج إمام هذه الطبقة فى توخّى "السجع" و"البديع"، ويكثر "الطّباق" فى رسائله، وأهم محسّن بديعى أكثر من استخدامه هو "الجناس" [٢].

ومن كلامه فى انتصار القائد "صلاح الدين الأيوبى" على حملة الصليب: "وأخرج من بيت المقدس يوم الجمعة أول الأحد، وقمع من كان يقول: "إن الله ثالث ثلاثة" بمن يقول: "هو الله أحد"، وأعان الله بإنزال الملائكة والرُّوح، وأتى بهذا النصر الممنوح الذى هو "فتح الفتوح" [٣].

مميزات الكتابة فى هذا العصر:

ومما سبق يستبين لنا بجلاء ووضوح تامّين أن الكتابة قد تميّزت فى هذا العصر بعدة ميزات ، منها:

- أولاً : تناولت الكتابة الموضوعات المختلفة التى كان يتناولها الشعر .

---

(١) المنتخب من ادب العرب: للدكتور / طه حسين وآخرين ١٨٢/١.
(٢) عصر الدول والإمارات: د/ شوقى ضيف ص٧٨٧ ، وتاريخ الأدب العربى: للزيات ص٢٤٢ .
(٣) عصر الدول والامارات (مصر ، والشام) ص٧٨٧ .

o **ثانياً** : الإكثار من عبارات التبجيل والتَّعظيم .

o **ثالثاً** : مالت الكتابة إلى الدقة فى الخيال، وتسلسل المعانى، والاعتماد على الأدلة والحجج والبراهين، وذلك للتأثر بالثقافات الأجنبية الوافدة إلى الأمة العربية .

o **رابعاً**: إظهار البراعة فى تقصى الحوادث والإلمام بأحداث التاريخ[1].

o **خامساً**: يقول الأستاذ "أحمد حسن الزيات" فى ميزان الكتابة : "فلما نزع العرب إلى الترف ، وزاد اختلاطهم بالفُرس أخذوا يتأنَّقون، ويطلبون أساليب القدماء، ثم مالوا إلى الازدواج، والسجع، والتضمين، يعنى تضمين الأشعار والأمثال فلمَّا ضعفت الخلافة، وقام بالأمر غير أهله سرى الضعف إلى الكتابة، ومالوا إلى زخرف القول، وتدبيج اللفظ بأنواع البديع [2].

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر ، والشام) ص٧٨٧ ، دراسات فى الأدب العباسى: للدكتور عبد الرحمن قناوى ص١٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربى: للأستاذ / أحمد حسن الزيات ص٢٤٠ .

فن المقامة في الأدب

المقامة ومعناها الأدبي :

كانت كلمة مقامة في العصر الجاهلي تعني مجلس القبيلة أو ناديها :

وفيهم مقامات حسان وجوهها ... وأندية ينتابها القول والفعل

وأحياناً كانت الكلمة تتجاوز المكان إلى من يتواجدون فيه، فتعني الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي، كقول "لبيد" :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم ... جن لدى باب الحصير قيام

ثم تطور مضمون الكلمة في العصر الإسلامي، وأصبحت تعني المجلس الذي يقوم فيه شخص بين يدي الخليفة أو غيره، كقول "كعب" :

لقد أقوم مقاماً ما لو يقوم به ... يرى ويسمع ما لو يسمع الفيل

وأخيراً أصبحت تعني المحاضرة، سواء أكان من يقدمها قائماً أو قاعداً. وعندما تقدمت الفنون الأدبية في العصر العباسي الثاني، وتعددت ألوان الأدب شعره ونثره، اتجه الأدب إلى التذويق والإغراق في المحسنات البديعية اتخذت المقامة مدلولاً أدبياً.

وكان "بديع الزمان" أول من استخدم لفظ "المقامات" استخداماً يقصد به جنساً أدبياً جديداً زيد على الفنون الأدبية المتداولة في ذلك الحين [1].

ويذكر "كارل بروكلمان" أن المقامات تحولت في العصر العباسي إلى معنى التكية والاستجداء بلغة منمقة، ويرى الدكتور "زكي مبارك" أن المقامات تستعمل بمعنى المحاضرات.

و"بديع الزمان" أول من وضع المعنى الاصطلاحي لكلمة "مقامة"، فقد أطلقها على مقاماته، وجعلها في صورة أحاديث تعليمية فيها الكثير من الأساليب اللغوية، والمعاني

---

(١) المجالس الأدبية – دراسة تحليلية مقارنة ص ١٨١ وما بعدها : د/ حمدان عبد الرحمن – مطبعة الأمة – الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م.

اللفظية التى تفيد الناشئين، ووضعها فى شكل قصصى.

وقد أصبحت المقامة فى عرف الأدباء: هى الحديث المأثور الذى يخلب اللب، ويأسر الخيال، ويقال على لسان شخص خيالى يحكيه على هيئة قصة، ويزينها بما يشاء من الحكم والأمثال، والمواعظ الكثيرة، معتمداً على السجع فى سردها وتصوير حوادثها [1].

وبتعبير آخر: المقامة فى مفهومها الأدبى: حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامى ويرويها شخص عن بطل يقوم بها [2].

ظهور المقامات ونشأتها فى الأدب العربى:

ارتبطت نشأة المقامات فى الأدب العربى بفساد الحياتين: الاقتصادية، والاجتماعية ففى خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى سيطر "البويهيون" على "فارس" و"العراق"، فأدى ذلك إلى انقسام الدولة المترامية الأطراف إلى دويلات كثيرة فى "فارس" و"الشام" و"المغرب" و"الأندلس"، وقد نتج عن هذا الانقسام وجود جماعات حاكمة فى هذه الدويلات متمتعة بكل الحقوق، تقابلها كثرة كادحة قد كتب عليه الحرمان والشقاء، وأصبح لزاماً على الأدباء الذين يتطلعون إلى الحياة الكريمة أن يتصلوا بهؤلاء الحكام لمدحهم؛ طمعاً فى المال والجاه، وأصبح الأدب وسيلة للكسب، فلا غرابة أن تظهر جماعة من فقراء المجتمع يتخذون من الأدب وسيلة للتسول أحياناً والنصب على العامة أحياناً أخرى .. وقد واكب هذا الاضطراب اضطراب آخر فى الحياة الأدبية، ومحاول كل أديب إظهار التفوق على الآخر فى مجال الصنعة، والإكثار من المحسنات البديعية، وفى فن المقامات وصف لكثير من العادات والتقاليد التى كانت منتشرة بين الطبقات الوسطى والدنيا فى العالم الإسلامى، وقد عزى "الحريرى" ابتداع هذه المقامات إلى "بديع الزمان الهمزانى"، وقد تبع "الحريرى" فى هذا الرأى كل من تصدوا لدراسة المقامات فى القديم كما وافقه معظم الباحثين المعاصرين [3].

---

(١) دراسات فى الأدب العباسى ص١٥٠ وما بعدها.

(٢) الأجناس الأدبية (مرجع سابق) ص١٨١.

(٣) الأجناس الأدبية - دراسة تحليلية ص١٨١ وما بعدها: د/ محمد عبد الرحمن - مطبعة الأمانة - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م.

بين القصة والمقامة

وتعتبر المقامة نواة للقصة فى أدبنا العربى، وقارن الأستاذ/ "فخرى أبو السعود" بين مقامات البديع، وبين أشباهها فى الأدب الإنجليزى، فيقول: "بدأت تنمو بذور القصة الفنية التى تدرس المجتمع، وتحلل الشخصية، وتهتم بالتصميم الفنى، والفكرة الموحدة ويبدو كل ذلك فى مقامات "بديع الزمان"، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه الوجهة مكان "أديسون"، و"ستيل" فى الإنجليزية، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف، وبراعة الفكاهة، وتنوع الموضوعات ما هو جديد بأسمى أنواع القصص واخترع شخصية "أبى الفتح الإسكندرى"، وهذه الشخصية تعين من مراحل تطور القصة العربية، نفس المرحلة التى تعينها شخصية "سير روجر" من تطور القصة الإنجليزية فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقالات "أديسون" و"ستيل" فى الأدب الإنجليزى تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية

بَيْد أن تطور القصة العربية وقف عندها الحد، لا يتخطاها، ولم يبلغ مرحلته التالية لأن الأسباب لذلك لم تكن مكتملة [1].

وفى أصل المقامة ومعناها ومنزلتها من القصة يقول الدكتور/ "محمد غنيمى هلال": "المقامة فى الأصل معناها المجلس، ثم أطلقت على ما يحكى فى جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية ... وكان يمكن أن يكون هذا الجنس أخصب جنس أدبى فى القصة والمسرحية فى الآداب العربية، لولا أنه سرعان ما انحرف عن النقد الاجتماعى فى صورة جدية إلى المحاكاة اللفظية، والألفاظ اللغوية، والأسلوب المصطنع، الزاخر بالحلية اللفظية [2].

---

(١) القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها سنة ١٩٣٠: عباس خضر ص١٨ – الدار القومية للطباعة ١٩٦٦م

(٢) الأدب المقارن: د/ محمد غنيمى هلال ص٢٢٣: ٢٢٤

فن المقامة يعد البذور الأولى للفن القصصى، وهو أشبه بالقصة القصيرة، وكان له شأن فى محاولة تطوير القصة العربية، والعبور بها إلى القصة الحديثة[1].

مقامات البديع وخصائصها

التعريف به : "بديع الزمان ، أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمزانى" ولد سنة ٣٥٨هـ فى "همزان"، وأدّبه "أبو الحسن أحمد بن فارس النمرى"، وفى سنة ٣٨٠ قدم إلى "جرجان"، وانتقل منها سنة ٣٨٤هـ إلى "نيسابور"، ولقى فيها "الخوارزمى"، وهو فى ذروة شهرته، ثم طاف "خراسان"، و"سجستان"، حيث نزل منزلة الكرامة عند الأمير "خلف بن أحمد"، وتوفى سنة ٣٩٨هـ.

مقاماته :

البديع مبتكر فن المقامات فى الأدب العربى، ويقول "الحصرى" فى "زهر الآداب" : "إنه عارض بمقاماته كتاب "الأربعين حديثاً" لأبى بكر محمد بن الحسن بن وريد الأزدى" وقد عد أقوال المكذبين، وصاغ منها صوراً من حياة الأدباء السيارين، حافلة بالحركة التمثيلية، وتدور فيها المحاورة بين شخصين، سمى أحدهما : "عيسى بن هشام"، والأخر : أبا الفتح السكندرى".

وقد كتب البديع أربعمائة مقامة فى الكدية وغيرها ،ولم يعثر منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة، ولحسن الديباجة ، وأناقة الأسلوب فيها المقام الأول فأسلوبها طلى شهى، والموضوع الأساسى الذى تدور حوله جل مقاماته هو : الكدية والاستجداء، ولكى ينجح البطل فى خداع الناس، كان ينمق أسلوبه، ويطعمه بالأشعار والحكم، والأمثال ويزينها ببعض الآيات القرآنية الكريمة ... وروح الفكاهة هى الطابع المشترك الذى يميز كل المقامات ، كى يستطيع البطل أن يصل إلى قلوب ضحاياه، ويتمكن من الاحتيال عليهم وتعتبر مقامات البديع من هذه الناحية من عيون الفكاهة فى الأدب العربى[2].

---

(١) القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠ – عباس خضر ص١٦ .
(٢) الأجناس الأدبية دراسة تحليلية مقارنة : د/ حمدان عبد الرحمن ص١٨٦ ، ١٨٧ .

ويقول الدكتور/ "شوقي ضيف" : "في مقاماته، يمتاز البديع في مقاماته خفة الروح وميل إلى الدعابة، والعبارات المسجوعة، وتدور حول "الكدية" أو الشحاذة الأدبية. أما المقامات الخمسة المتصلة "بخلف بن أحمد" ، فإنها تخلو من "الكدية" . وقد وضع البديع المقامات في إطار السجع، وألوان من الأخيلة والجناس، ومراعاة النظير، ولا ريب أن سجعه في مقاماته – كرسائله – سجع رشيق ، لما يمتاز به من قصر، ومن حسن انتخاب لألفاظه من المقامة القريضية للبديع.

حدثنا "عيسى بن هشام" قال: "طرحتني النوى مطارحها، حتى إذا وطئت "جرجان" الأقصى استظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها (أعملت) يد العمارة، فأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة ... فجعلنا يوماً نتذاكر القريض وأهله، ونلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ، ينصت وكأنه لا يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال : أصبتم عذيقة ووافقتم حزيلة. فدنا وقال: "سلوني أجبكم، واسمعوني أعجبكم". فقلنا: "ما تقول في "امرئ القيس". وقال: "هو أول من وقف بالديار وعرفاتها، واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسباً، ولم يجد القول راغباً، فضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه". قلنا: "فما تقول في "النابغة" . قال: "ينسب إذا عشق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، ولا يرمي إلا صائباً"[1].

مقامات الحريري

التعريف به : هو "أبو محمد القاسم بن علي بن علي بن محمد الحريري البصري" ولد سنة ٤٤٦هـ، وسكن "البصرة"، وأخذ يختلف إلى علماء عصره، يأخذ عنهم الحديث والفقه ، والأدب، وهو أحد أعلام البلاغة، واللغة، والأدب، والإنشاء، ومقاماته التي حاكى بها البديع، أربت عليها اشتياراً ومنفعة، وقل أديب منذ وجدت لم ينتفع أو يعجب

---

(١) النصوص الأدبية في العصر العباسي : د/ مصطفى محمد يونس ص١٣٨ .

بها، توفى سنة ٥١٦هـ.

مقاماته : ويعتبر مقامات الحريرى آية براعته، التى ليس لها لاحقة مماثلة. وكأنما أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده. فلم يستطع أحد أن يبلغ مبلغه فى تلك المقامات. وقد شهد بذلك "الزمخشرى" . فقال:

أقسم بالله وآياته ∴ ومشعر الحج وميقاته

إن الحريرى حرى أن ∴ تكتب بالتبر مقاماته

ويقول "السمعانى" عنه : "لم يكن له فى فنه نظير فى عصره".

ويقول "العماد الأصفهانى" : "طلعت ذكاء (شمس) ذكائه فى المغرب والمشرق ... حريرى الوشى، عرافى الوشم (النقش)، لؤلؤى النظم، كلامه يتيمة البحر، وتيمة النحر. وكان الناس يزدحمون عليه لسماع مقاماته. ويقال: إنه أجاء لسبعمائة طالب أن يرووها عنه، وفى ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته فى عصره من منزلة أدبية رفيعة.

والمقامات أقاصيص قصيرة، تصور مواقف متنوعة، لأديب متسول يحتال ببيان وفصاحة لسانه، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير، وهى تزخر بحركة تمثيلية، غير أنها لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها. فقد كانت غاية "الحريرى" منها غاية بلاغية فحسب.

ونرى "الحريرى" يذكر فى مقاماته مقصده منها . إذ يقول: "أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكتابات، ورصّعته منها من الأمثال العربية. واللطائف الأدبية. والأحاجى النحوية. والفنادى اللغوية. والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة. والمواعظ المنكية، والأضاحيك الملهية. ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر. فضلاً عما التزمه من السجع. وكان ذوق التصنيع عم فى الكتابة. فلم يقف الكتّاب عند السجع، والمحسنات البديعية. بل أخذوا حتى يثبتوا براعتهم الأدبية".

وعن التصنيع والصنعة عند "الحريري" يقول: "أحمد حسن الزيات": "وهو من ساقة أتباع "ابن العميد"، ومن المجتهدين لتطوير الطريقة الفاضلية، بالقصد إلى البديع والمبالغة في الصنعة والإفراط في تذييج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه عليلة ضئيلة، مثل العروس المسلولة جملوها بالأصباغ، وأثقلوها بالغلائل والحلل، ومقاماته من أجود آثاره، صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه، وفيها تكلف لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

من المقامات الفلسفية من مقامات الحريري

فاتفق حين دخلت تفليس [1]، أن صليت مع زمرة مفاليس [2]، فلما قضينا الصلاة وأزمعنا الانفلات، برز شيخ بادي اللغوة [3]، بالي الكسوة والقوة، فقال: عزمت على من خلق من طينة الحرية، وتفوق [4] در العصبية، إلا ما تكلف لي لبثة [5]. واستمع مني نفثة ثم له الخيار من بعد، وبيده البذل والرد، فعقد له القوم الحبا [6]، ورصوا أمثال الربا، فلما أنس حسن إنصاتهم، ورزانة حصاتهم [7]، قال: "يا أولي الأبصار الرافقة، والبصائر الرائقة، أما يغني عن الخبر العيان، وينبئ عن النار الدخان [8]، شيب لائح، ووهن فادح وداء واضح، والباطن ناضح، ولقد كنت ممن ملك ومال وولي وآل، ورفد وأنال، ووصل وصال، فلم تزل الحوائج تسحت [9]، والنوائب تنحت، حتى الوكر قفر، والكنف صعر والشعار صير، والعيش مر، والعصبة يتضاغون [10] من الطوى، ويتمنون معاصة النوى

---

(١) مدينة بأذربيجان
(٢) مفاليس فقراء
(٣) اللغوة صرب من الخلل.
(٤) تفوق رصع، والدر اللين.
(٥) لبثة امكنه اني مكث قليلا حين يسمع ما اقول، ويريد بالنفثة هنا: الكلمة
(٦) الحبا جمع حبوة، وهي جلسة للأعراب كمن الرئيس منهم يحتبي على الا يقوم احد، فيجمع عندم ركبه الى بطنه، وساقيه الى وركيه، ثم يلف على مقدم ساقيه وظهره ازارا يشمل الجميع.
(٧) المراد بالحصاة هنا: العقل والرزانة
(٨) مال. تمول واعتنى. وولي: من الولاية، وال من الايالة وهي السياحة
(٩) تسحت: من السحت، وهو محق البركة.
(١٠) يتضاغون: يتباكون، ويصيحون جوعا. والطوى: الجوع.

ولم أقم هذا المقام الشائن ، وأكتشف لكم الدفائن إلا بعد ما شقيت ولقيت[1]، وشبت مما لقيت، فليتني لم أكن بقيت ..."الخ.

أثر المقامات في اللغة والأدب

لقد أثرت المقامات في اللغة العربية وآدابها، لما حفلت به من مفردات غريبة وتراكيب بليغة، وأساليب بديعة ، وصور فنية جميلة، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي :

- تعد المقامات ديواناً حافلاً بالألفاظ اللغوية .
- شاع أسلوبها وانتشر في الأوساط العربية شرقاً وغرباً .
- أفاد الناشئون والمتأدبون من الألفاظ اللغوية، والتراكيب الأدبية، منذ نشأتها حتى الآن.

وفي قيمتها اللغوية والأدبية يقول الأستاذ / "أحمد حسن الزيات" : "وليس من المقامة جمال القصص، ولا حسن الوعظ، ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها الفن للفن، وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب في اسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد، ولم تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع ، فلم يعن كاتبوا المقامات بتصوير الخطابات، وتحليل الأشخاص وإنما صرفوا عملهم إلى تحسي اللفظ وتزيينه.

الخطابة في العصر العباسي الثاني وأهم موضوعاتها

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس، وسلطان على القلوب لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع، والشأن البعيد، "كالمنصور"، و"المهدي"، و"الرشيد" و"المأمون"، و"داود بن علي"، و"خالد بن صفوان"، و"شيبة بن شيبة"[2].

ولا غرو فالخطابة ضرورية لكل مجتمع، في سلمه وحربه، فهي أداة الدعوة

---

(١) أصبت بالقوة .
(٢) تاريخ الأدب العربي : للزيات ص٢٤٣ .

إلى الرأى، والتوجيه إلى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين، والزعماء والمصلحين، فهى ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية.

ومن المعلوم أن الخطابة تنتعش بوجود الدواعى إليها، والأغراض الباعثة عليها، والموضوعات التى تكون الضرورة ملحَّة ماسَّة للقول فيها، والتصدى لها، والإعلان عنها والدعوة إليها.

وقد توافرت فى العصر العباسى الأول عوامل أدت إلى ازدهار الخطابة وتنوعها – كما رأينا – فلما استوثق الأمر لبنى العباس، وقام الموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيش وقل النضال باللسان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعى إليها وحلت الرسائل والمنشورات محلها فى دفع العظائم، وسل السخائم، وقصرت على خُطب الجُمع والعيدين والزواج، على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس، ويؤمونهم إلى عهد الخليفة "الراضى"، فلما غلَّ "بنو بويه" أيديهم، وحصروهم فى دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاءة من العلماء، فنبغ فى آخر هذا العصر طائفة من الأدباء اشتهروا بهذا النوع من الخطابة .. كما اشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم فى كل بلدة، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب "ابن نباتة" خطيب "سيف الدولة الحمدانى"، وطبيعى أن يشتهر بمصر غير واعظ، ويلقانا فى مفتتح هذا العصر "أبو الحسن على بن محمد البغدادى"، المتوفى سنة ٣٣٨هـ ... وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشئ من خطبه ومواعظه "بالقاهرة".

ونمضى إلى زمن "الأيوبيين"، فيلقانا "إبراهيم بن منصور" المتوفى سنة ٥٩٦هـ، إمام جامع "عمرو بن العاص" وخطيبه ... وطبيعى أن الخطابة فى زمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام[1].

وفى "حلب" بالشام نلتقى "بأبى العلاء المعرى" ... وله كتاب يعرف "بسيف الخطب" فيه خطب الجُمَع والعيدين، والخسوف والكسوف، والاستسقاء، وعقد الزواج.

---

(١) عصر الدول والامارات (مصر، والشام) ص٤٦٠ وما بعدها.

ويحتدم الوعظ عند نزول الصليبيين "الشام" ليبث الحمية فى نفوس الناس ... واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم، منهم "بنو العديم" فى "حلب" لعهد "نور الدين"، و"ابن نجا" خطيب "دمشق" ... ومن الوعاظ المشهورين حينئذ "المهذب الدمشقى"، وفى الجزيرة العربية تلقانا فى "اليمن" المواعظ فى كل زمان ومكان، ومن أشهر الخطباء فى عهد "الرسوليين": "أبو الغيث بن جميل" الملقب "بشمس الشموس"، وكان يعاصره "أحمد بن علوان"، وكان الوعظ مزدهراً فى "حضر موت"، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم، ومن أشهر متصوفيها "أبو بكر العيدروس"، كما وجدت خطب ومواعظ كثيرة فى "البحرين" و"عمان" شأنها فى ذلك شأن جميع البلاد العربية فى الجزيرة، ووراء الجزيرة.

خصائص الخطابة فى هذا العصر

يمكننا أن نستخلص خصائص الخطابة فى هذا العصر من خلال عرضنا لخطبة من خطب أشهر الخطباء حينئذ، وهو "ابن نباتة الفارقى" الذى يقول فيه "ابن خلكان" صاحب الخطب المشهورة: "وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته، وكان خطيب "حلب" أيام "سيف الدولة الحمدانى"، وكان كثير الغزوات ولهذا أكثر "ابن نباتة" من خطب الجهاد؛ ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة "سيف الدولة"، يقول فى الخطبة الثالثة لشهر صفر، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم:

"أيها الناس، تزهّدوا عن حبّ الدنيا، فإن متاعها قليل، وتزوّدوا بتقواكم، فإن السفر طويل، ولا تطمعوا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم: يا عباد الله، الرّحيل الرّحيل، هو الموت الذى ما فيه فوت ولا تعجيل، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل، كم ألحق عليلاً بصحيح، وصحيحاً بعليل، وكم أخذ قريباً من قريب، وحليلاً من خليل، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة، ولم يبق من العمر إلا القليل، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشّبيه والمثيل".

وواضحة فى هذه الخطبة الخصائص الفنية لأسلوب الخطيب فى هذا العصر، فلغة

"ابن نباتة" فى خطابته عذبة سائغة، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر، فقد عمّ السّجع حتى فى الكتابات التاريخية .. ويجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه لسهولته، وخفته وبراعته فى صوغه، حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد .. وبهذه اللغة الصافية الحلوة، كان "ابن نباتة" يعظ الناس فى أيام الجمع، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم، ونحسّ بصلة قوية بين خطبه وخطب "على بن أبى طالب" فى نهج البلاغة. وبدون ريب كان فى خطابته يستعين ببيانه الرائع[1].

(١) عصر الدول والامارات (مصر والشام) ص٨١١ وما بعدها.

ازدهار الشعر في هذا العصر وأسبابه:

ازدهر الشعر في هذا العصر، وتعددت اتجاهاته، ونشط نشاطاً واضحاً في كل أنحاء الجزيرة، فقد شهد هذا العصر انقسام الدولة وتفرقها إلى دويلات في الشرق والغرب استقلت عن الدولة العباسية، ووجد الشعر في هذه الدويلات عناية ورعاية من أمرائها ووزرائها، ووجد الشعراء سخاء وعطاء من أمراء هذه الدويلات من أمثال "سيف الدولة الحمداني"، و"معز الدولة بن بويه"، ومن هنا كان تعدّد العواصم والحواضر في هذا العصر وتنافس الأمراء على أن يجمع كل واحد منهم أكبر عدد من الشعراء في دولته أهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار الشعر وانتشاره، وكثرة الشعراء فقد عمل كل أمير من أمراء هذه الدويلات على تقريب الشعراء والأدباء إليه، وحرص على أن تنافس دولته "بغداد" في جذب الأدباء والشعراء إليها، كما أن من أسباب ازدهار الشعر ونهضته تلك النهضة العلمية والأدبية والفنية التي شهدها هذا العصر، فقد جنى العلماء في هذا العصر ثمرة جهاد العلماء في العصر السابق، كما انتفعوا بثمرات الترجمة من الثقافات الأجنبية.

ومن هذه الأسباب أيضاً تنافس الشعراء والأدباء الشديد، ومحاولة كل منهم بذل الجهد في أن يرقى بفنه إلى منزلة عالية تقربه من أهل الحكم.

الشعر في الجزيرة العربية:

هذه الأسباب وغيرها دفعت بالشعر إلى الازدهار والانتشار في شتى أنحاء الدولة الكبرى، ففي الجزيرة العربية كانت "مكة" داراً كبيرة للشعر والشعراء، واليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم، غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجري قليلة.

وقد ترجم "العماد" لشعراء "الحجاز" و"تهامة"، ويريد بها "مكة"، وأول من يترجم لهم "شكر بن أبي الفتوح"، ثم "جعفر بن إسماعيل الحسني"، ثم "أبو عبد الله بن إبراهيم الأسدي الحجازي"، كما ترجم الكثير من شعراء اليمن "كابن القمّ"، و"عمارة اليمني".

وفي "مصر" في عهد الدولة "الإخشيدية" نشط الشعر نشاطاً كبيراً، فقد ترجم

"الثعالبي" فى كتابه "اليتيمة" لطائفة من شعرائها، مثل: "ابن أبى العصام"، و"ابن طباطبا الحسنى الرس"، ونزل "مصر" فى عهد "كافور"، و"المتنبى"، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة، وممن نزلها من الشعراء أيضاً "كشاجم"، و"الناشئ الأصغر".

ولما تولى الفاطميون حكم "مصر" قصدهم الشعراء، فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا، وكان من أمرائهم ووزرائهم شعراء أيضاً "كالمعز"، و"العزيز"، و"الحاكم" و"المستنصر" ... ووفد على مصر فى زمانهم كثير من الشعراء النابهين فى البلاد العربية أمثال: "ابن الرقعمق الأنطاكى"، و"صريع الدلاء البغدادى"، والتهامى المكى" ... وغيرهم.

ويظل نشاط الشعر المصرى فى زمن "الأيوبيين" بل يزداد نشاطاً على نحو ما يصور ذلك كتاب "بدائع البدائع" "لعلى بن ظافر الأزدى"، ومن الأدلة على ازدهار الشعر فى أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد "العماد" فى خريدته يخص "مصر" بمجلدين ترجم فيهما لمائة وأربعين شاعرا.. وأطلقت فتوح "صلاح الدين" وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر" وجميع البلدان العربية.

الشعر فى الشام:

أما فى الشام فقد كانت "حلب" فى زمن "سيف الدولة" أكبر مركز علمى وفلسفى ولغوى، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين، من أمثال "الفارابى"، و"أبى" على الفارسى"، و"ابن جنى"، غير من كان بها من الأطباء، وعلماء الفلك، وأصبحت مركزاً للشعر والشعراء، إذ لم يبق شاعر كبير فى "الشام" أو فى "العراق"، أو فى "إيران" إلا أمّها وأسبغ عليه "سيف الدولة" من نواله حتى ليقول "الثعالبى": إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب "سيف الدولة" من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، منهم "كشاجم"، و"السلامى"، و"السرى الرفاء"، و"الوأواء الدمشقى"، و"النامى"، و"ابن نباتة السعدى"، و"البيغاء".

ومضت "الشام" فى نهضتها الشعرية، وظهر فيها أمثال "عبد المحسن الصورى" و"أبى الرقعمق"، و"الواسانى"[1].

الشعر فى ظلال البويهيين والسلجوقيين :

لقد كان الشعراء كثرة كاثرة فى البيئة العراقية، فقد ترجم "الثعالبى" صاحب كتاب "يتيمة الدهر" لأكثر من سبعين شاعراً، مما يصور ازدهار الشعر آنذاك، وهذا الازدهار قد هيأته عدة عوامل، منها:

رعاية الخلفاء للشعراء، وكذلك كان "أمراء بنى أمية" ووزراؤهم؛ حيث إنهم أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز، وليس ذلك فحسب، فقد استقبلوهم فى مجالسهم، وحوّلوها أو حوّلها بعضهم مثل "عضد الدولة البويهى" إلى نوادٍ أدبية.

وكان وزراء "بنى بويه" يتنافسون فى جذب الأدباء والشعراء إليهم، وكان أول من اشتهر بذلك منهم "الوزير المهلّبى"، وهو وزير "معز الدولة"، وقد فات "الثعالبى" وهو يؤرخ ويترجم للشعراء فى عهد البويهيين "الأنبارى"، كما نهض الشعر نهضة كبيرة فى عهد "السلجوقيين"، وذلك بفضل الوزير السلجوقى "ألب أرسلان نظام الملك" الذى فتح أبوابه للشعراء، وأغدق عليهم العطايا والهبات، وغمرهم بالجوائز، فجاءوا يمدحونه من كل أنحاء "العراق"، ومن أشهر شعراء هذا العصر "ابن السراج البغدادى"[2].

---

(١) المرجع السابق ص٦١٠ : ٦١١ بتصرف.
(٢) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق - إيران) ص٣٢٣ وما بعدها.

خصائص الشعر في العصر العباسي الثاني

أولا : ألفاظ الشعر وأساليبه وأخيلته ومعانيه :

تعددت اتجاهات الشعر في هذا العصر بحسب تعدد الدول والأقاليم، فاتجه الشعر في "العراق" و"فارس" بصفة عامة إلى التأثر بالنزعة العلمية، لأن البيئة كانت حقلاً خصيباً لازدهار أشعارهم المؤلفة والمترجمة، فكان الشعراء في الغالب يضمنون أشعارهم أراء أفادوها مما طالعوه مترجماً، وظهرت في أشعارهم الصبغة العميقة المتقنة، والإكثار من الحكم والأمثال، وشاعت فيه النزعات الفلسفية والعلمية، وكان ذلك على حساب طبيعة الشعر، وما يلائمه من روعة الخيال، وبراعة التصوير لدقائق الشعر، وأضافوا إلى ذلك كثيراً من المحسنات البديعية.

ومن هؤلاء الشعراء "أبو طالب المأموني" المتوفى سنة ٣٨٣هـ، و"أبو الفتح البُسْتي" المتوفى سنة ٤٠٠هـ، و"الطغرائي" المتوفى سنة ٥١٣هـ، و"الأبيوردي" المتوفى سنة ٥٥٧هـ وغيرهم.

وأما في ديار "الشام" فقد تجلت في الشعر دقة المعاني، وسعة الخيال، وبلاغة العبارات. ولعل السبب في ذلك أن هذه الديار موصلة من الناحية المكانية بأرض الجزيرة مهد اللغة العربية، ومن شعراء الشام "أبو الطيب المتنبي" المتوفى سنة ٣٥٤هـ، و"أبو فراس الحمداني" المتوفى سنة ٣٤٥هـ، و"كشاجم" المتوفى سنة ٣٦٠هـ، و"السَّري الرَّفاء" المتوفى سنة ٣٦٣هـ، و"الوأواء الدمشقي" المتوفى سنة ٣٩٠هـ، و"أبو الفتح البقاء" المتوفى سنة ٣٩٨هـ، و"الشريف الرضي" المتوفى سنة ٤٠٦هـ، و"مهيار الديلمي" المتوفى سنة ٤٢٨هـ و"أبو العلاء المعري" المتوفى سنة ٤٤٧هـ وغيرهم.

وأما الشعر العربي في "مصر" فقد تجلت فيه – غالباً – الرقة والعذوبة، ومن شعراء مصر في هذا العصر "ابن طباطبا" المتوفى سنة ٣٤٥هـ، و"تميم بن المعز" المتوفى سنة ٣٦٨هـ و"عمارة اليمني" المتوفى سنة ٥٦٩هـ، و"ابن سناء الملك" المتوفى سنة ٦٠٨هـ، و"ابن

الفارض" المتوفى سنة ٦٢٣هـ، و"بهاء الدين زهير" المتوفى سنة ٦٥٦هـ.

وإذا نظرنا إلى الشعر في هذا العصر من ناحية المعنى، وجدنا طائفة من معاني القدماء مطروحة بين أيدى الشعراء – في الغالب – يأخذونها، ويحوِّرون فيها أو يضيفون إليها ويزيدون عليها، وكان لهم بجوار هذه الطائفة معانٍ جديدة استقلوا بها واستوحوها من تلك الحضارة التي اتسعت، وتلك المدنية التي انفسحت، وتلك المشاهدات الجديدة التي ملأت عليهم دنياهم.

ثانيا: أغراض الشعر في العصر العباسي الثاني:

يقول "ابن وهب" الكاتب: "للشعراء فنون في الشعر كثيرة، يجمعها في الأصل أصناف أربعة: وهي المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو. ثم يتفرع عن كل صنف من ذلك فنون، فيكون من المديح: المراثي، والافتخار، والشكر، واللطف في المسألة، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه، ويكون من الهجاء: الذم، والعتب، والاستبطاء والتأنيب، وما أشبه ذلك، ويكون من الحكمة: الأمثال، والزهد، والمواعظ، وما شاكل ذلك، وكان من نوعه، ويكون من اللهو: الغزل، والطرد، وصفة الخمر، والمجون، وما أشبه ذلك وقاربه.

وهكذا أراد "ابن وهب" أن يشير إلى أنه من الميسور أن نختصر ونركز، فنجعل أغراض الشعر راجعة إلى أربعة أصول، ونستطيع أن نقسم كل أصل إلى جملة فروع، ولو شئنا لأضفنا إلى "ابن وهب" فريداً منها، بأن نذكر النسيب والتشبيب، وأن نذكر الإخوانيات، والتهاني، وأن نذكر شعر القصص والملاحم ... الخ.

والقصيدة من الشعر لا تقتصر على غرض واحد، بل يتسرب إليها أكثر من غرض ولو أرادها صاحبها لغرض معين، فقصيدة الرثاء مدحاً ووصفاً وحكمة، وقد يقال مثل هذا عن قصائد تصاغ في أغراض أخرى. ومعنى هذا أن الأغراض الشعرية تتداخل أحياناً كثيرة وتتمازج أو تتقارب.

وإذا نظرنا إلى أغراض الشعر في العصر العباسي الثاني نجد طائفة من الأغراض التي

كانت معروفة مألوفة قبل هذا العصر، قد بقيت فيه، كالمدح، والهجاء، والفخر، والرثاء والقول فى الزهد، والحكمة، والمثل، ولكن الشعراء أخذوا يقلدون مخاطبة الديار، فى الوجدان ووصف النوق والصحراء، وكان هذا طبعياً: فقد فتح العرب عيونهم فى هذا العصر على ما شغلهم عن الصحراء وما اتصل بها، وتفتحت عيونهم على دور وقصور ومشاهد حضارية، كادت تنسيهم حياة البادية وذكرياتها.

أما عن موضوع الفخر: فيقول "حنا الفاخوري":

"الفخر من أول فنون الأدب على نظرة الإنسان، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها. فالإنسان – ما لا يخفى – سجين ذاته منذ الولادة يديم النظر فى مرآتها، مستجلباً محاسنها، صانعاً قبائحها بما يجعلها فى ميزانه دون الناس أجمعين، مواريا فيها بينها وبين غيرها، هذا الإيثار للنفس إذا تجسم فى عبارات سكرية كان الفخر وكان الحماسة"(١).

والفخر هو تعداد الصفات، وتحسين السيئات، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب. وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم، يعبر عن ميلهم الطبعى إلى الأنفة والعزة، كما يعبر عن انتفاخة أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية. والطبيعية وانطلاقها النابض وراء الآمال والذرى.

والذات فى الفخر ذات وتمددات للذات، من خلال خلقية، ومن أصل، ونسب وحرب، ومذاهب وأعمال، وأقوال، ومواقف، وكرامات، وبطولات، وما إلى ذلك مما لا نهاية له، والفخر من ثم أنواع: فخر ذاتى، وفخر حزبى، وفخر سياسى، وفخر دينى وفخر حربى.

أما الفخر الذاتى: فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد، وما دار حول القبيلة والآباء والأجداد، وأما الفخر الحزبى فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه، وطموحه

---

(١) مقدمة الفخر والحماسة – سلسلة فنون الأدب العربى – دار المعارف سنة ١٩٨٠

وأما الفخر الدينى فقد نشأ مع ظهور الإسلام ورافقه فى الفتوح الإسلامية، وأما الفخر الحربى، فهو شعر الحماسة ووصف الجنود وتشجيعهم على القتال وخوض الحروب. وأما الشعر الحماسى فى هذا العصر: فكان يدور حول وصف المعارك والأسلحة المستخدمة فيها كالسهام، والخيول، والأساطيل، وقد تتبع الشعراء فى هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم، وزادوا على ذلك أن فجروا الحكمة بالتصوير الفنى، واهتموا بالصياغة اهتماماً خاصاً، كما اهتموا بالتذويق والتهويل فى الوصف والتصوير.

وقد اشتهر كثيرون فى الشعر الحماسى فى هذا العهد، نذكر منهم "أبا الطيب المتنبى"، و"أبا فراس الحمدانى".

أما أبو الطيب: فهو شاعر الحماسة الحمدانية، وقد أفسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك؛ لأن حروب الحمدانيين مع "الروم" دارت نحو ستين عاماً، وكان لها أصداء واسعة فى طولها وعرضها، وأهم المعارك التى جرت بين "سيف الدولة" و"الروم" معركة "خرشنة" ومعركة "الحدث الحمراء"، ومعركة "الدرب"، وقد سجلها "المتنبى" فى شعره أروع تسجيل وفرح "المتنبى" الشعر الحماسى بشعر المدح، يتضح ذلك فى قصيدته التى قالها فى موقعة "الحدث الحمراء" فقد كانت هذه المعركة بعد أن هدم "الروم" ذلك الثغر، وقوّضوا أركانه وبعد أن باشر "سيف الدولة" إعادة البناء، فقد هاجمه "الروم" وهو فى زحمة العمل، وعلى رأسهم "برداس فوكاس"، ونشبت الحرب الهائلة بين الفريقين، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها. وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربى، ولم يترك "سيف الدولة" مدينة "الحدث" حتى أتم بناء سورها، فتناول "المتنبى" هذا الحدث العظيم، ونظم فيه قصيدته المشهورة، والتى مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ∴ وتأتى على قدر الكرام المكارم

يقصد "سيف الدولة الحمدانى".

كما اتسع الهجاء فى هذا العصر عند طائفة من الشعراء، أقذعوا فيه إلى حد بعيد

فتناولوا العورات والسّوءات، وعرَّضوا بالآباء والأمهات، وشاع شعر المجون، واللهو على لسان كثير من الشعراء: "كأبى الرقعمق" أحمد بن محمد الأنطاكى و"ابن سكرة"، و"ابن حجاج".

ونذكر بهذه المناسبة أن "الراغب" "الحسين بن محمد الأصفهانى" المتوفى سنة ٥٠٢هـ أورد كثيراً من الأشعار التى تحت مفهوم "الأدب المكشوف"، الذى يدور حول المجون فى كتابه "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء".

وقد حاول بعض القائلين فى المجون والهزل، ممن كانت لهم مكانة أدبية أو دينية بين قومهم، أن يُفهمونا أن شعرهم الماجن لا يتعدى نطاق القول، وأن لهم من دينهم وخُلقهم ما يمنعهم أن يصدّقوا قولهم بالعمل .. وإذا كان لكل فعل ردّ فعل ، وبضدها تتميز الأشياء، فقد كان من الطبيعى أن تظهر أغراض فى الشعر تكون كحركة المقاومة لشعر المجون والهزل والتمرد على قيم الدّين والأخلاق، ومن هذه الأغراض: الإكثار من القول فى الحكمة والفلسفة، والتصوف والزهد، ومن شعراء الحكمة "أبو الطيب المتنبى"، و"المعرى" و"ابن الفارض". ومن شعراء الفلسفة: "ابن سينا"، و"الرازى" و"ابن التلميذ الطيب"، ومن شعراء التصوف: "الحلاج"، و"الشبلى"، و"القشيرى".

ومن الأغراض التى كثر القول فيها فى هذا العصر:

- وصف المعارك الحربية، وذلك لما تتطلبه الدولة من تمجيد هذه المعارك ، وتخليدها بسبب الصراع الدامى الذى وقع بين المسلمين والمعتدين عليهم خلال الحروب الصليبية.
- وظهر أيضاً الشعر الاجتماعى الذى يتحدث عن بعض مظاهر المجتمع أو مشكلاته أو سيئاته، كما ظهر الشعر العلمى: المتصل بالجدل الدينى، أو النقاش الفكرى وكذلك ظهر نوع من الدراسة الأدبية الشعرية عن طريق الموازنة بين الشعراء فيما قالوا، وظهرت المكاتبات الشعرية.

ولقد توسع كثير من الشعراء فى هذا العصر فى الإتيان بالمحسّنات البديعية واللفظية

وتجلى ذلك فى عصر "بنى بويه" بصفة خاصة، ومن أعلام هذا المجال "الدمشقى"، و"أبو الفتح البستى"[1].

الشعر الصوفي :

الشعر لغة الوجدان، وهو نتاج خيال محلق، وشعور مرهف، وفكر رحب، والشعر من الشعور، وما سمت العرب الشعر شعراً إلا لأنها شعرت به، وفطنت إليه، والشعر الصوفى كثير، وغزير غزارة النثر الصوفى، وشعراء الصوفية كثيرون فى كل عصر، ومنهم شعراء قالوا فأفاضوا، واعتمدوا على الارتجال والبديهة فأحسنوا، وأتوا فى شعرهم بغرر المعانى، وروائع الخيال، وبدائع الصور، وجميل التشبيهات، ولطيف المجازات، ونلاحظ أن الشعر الصوفى كان من جانب آخر تحويلاً للشعر الدينى الإسلامى، وتوجيهاً للغزل العذرى المتصوف الهائم فى مسارح الجمال الروحى، وكان قسم منه تغييراً لشعراء الخمريات فى الأدب العربى، وقسم آخر منه - وهو الخاص بوصف الذات الإلهية كان ترقية لفن الوصف فى أدبنا القديم، وشعر المدائح النبوية كان كذلك تموجاً لفن المدح فى الشعر العربى[2].

عصور الشعر الصوفى :

إذا حكمنا بأن التراث الشعرى الصوفى قد ظهر فى أوائل القرن الثامن الهجرى على أيدى "الحسن البصرى" وتلامذته من بعده، فإننا نستطيع أن نقسمه إلى مراحل زمنية متعاقبة :

- **أولاً** : المرحلة الأولى من عام (١٠٠هـ حتى عام ٢٠٠هـ)، وتشمل القرن الثانى الهجرى بأكمله، والخلافة العباسية فى "بغداد" ... وفيها كان الشعر الصوفى يكوّن نفسه بنفسه، وينهض بتقاليده الفنية والفكرية ؛ ليؤصلها فى أذهان الناس، وكان

---

(١) النصوص الأدبية فى العصر العباسى الثانى ص١٩ بتصرف .
(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى – طلاله فى الأدب العربى : د/ خفاجى ٤٦/٢ بتصرف، مكتبة القدرة

هذا الشعر الصوفى لمحات دالة ، أو قليلاً من الأبيات الموجزة. ومن شعراء هذه المرحلة "رابعة العدوية" (١٨٥هـ).

○ **ثانياً**: المرحلة الثانية، وتشمل قرنين من الزمان هما : (الثالث والرابع) الهجريان وقد كان الشعر الصوفى فى هذه الحقبة فى دَور نهضة وازدهار ومن شعرائه : "أبو تراب عسكر بن الحسين التخشبى" (٢٤٥هـ)، وله شعر فى "علامة المحبة" يقول فيه :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ∴ ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنفسه بمر بلائه ∴ وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ∴ والفقر إكرام وبر عاجل

ومن الشعراء فى هذه المرحلة: "أبو حمزة الخراسانى"، وفيها ظهر من شعراء العربية "المتنبى"، و"الشريف الرضى" وسواهما.

○ **ثالثاً**: المرحلة الثالثة، وتمثل القرنين: (الخامس، والسادس) (٤٠٠ – ٦٠٠هـ)، وفيها يتجه الأدب الصوفى إلى الحب الإلهى، ومدح الرسول ﷺ، والشوق إلى الأماكن المقدسة، ويدخو إلى الفضائل الإسلامية، وفى هذه المرحلة نشأ الأدب الصوفى الفارسى، ونبغ من الفرس "معروف البلخى"، و"البهتى"، وفى هذه المرحلة ظهر شعراء العربية الكبار "الحصرى"، و"مهيار".

ومن الشعراء الصوفيين في هذه المرحلة

"السهروردي" (٨٥٦هـ). ومن شعره:

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم ∴ أنوح كما ناح الحمام المطوق

وفوق سحاب يمطر الهم والأسى ∴ وتحتى بحار بالأسى تتدفق

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها ∴ تفك الأسارى دونه وهو موثق

فلا هو مقتول ففى القتل راحة ∴ ولا هو ممنون عليه فيطلق

و"عبد القادر الجيلانى". ومن شعره:

يا من تحل بذكره ∴ عند النوائب والشدائد

يا من إليك المشتكى ∴ وإليه أمر الخلق عائد

و"أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسى القرشى"، صاحب قصيدة "المنفرجة" التى مطلعها:

اشتدى أزمة تنفرجى ∴ قد آذن ليلك بالبلج

- **رابعاً:** المرحلة الرابعة: وتشمل القرن السابع الهجرى، وفيه بلغ الشعر الصوفى قمة نهضته، وظهر من أعلامه "ابن الفارض" المتوفى سنة ٦٣٢هـ، ويقرن "جلال الدين الرومى"، و"محى الدين بن عربى" المتوفى سنة ٦٣٨هـ، والبوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥هـ.

ومن شعرهم:

جزى الله عنا أحمد خير ما جزى ∴ فمذ جاءنا بالحق فالحق أبلج

جمال بدا بين الحطيم وزمزم ∴ فظلت له الآفاق بالنور تبهج

جرى أولاً فى وجه آدم نوره ∴ وكان به يوم السجود يتوج

- **المرحلة الخامسة:** من القرن الثامن الهجرى حتى اليوم، ومن أشهر أعلام التصوف فيه "الشعرانى" (٨٩٨هـ - ٩٧٣هـ)، و"النابلسى"، و"الحلاج" فى شعره يصطنع

ما اصطنعه سائر الصوفية من رمز ، وألغاز ، وإشارة ، بَيْد أنه امتاز بالوضوح أحياناً، وظهر ذلك جلياً فى ديوانه وموضوعاته فى الحب الإلهى، والمعرفة والفناء والنور المحمدى، ووحدة الوجود[1].

وقد انتشرت كما أومأنا إلى ذلك آنفاً موجة الخلاعة والمجون منذ مطلع العصر العباسى الأول، وكان لهذه الموجة صداها فى الشعر، فكثر شعراء المجون والخلاعة والزندقة، وظلت هذه الموجة تنمو وتزدهر طوال العصر العباسى الأول، وكانت كثرتها مفرطة للغاية فى هذا العصر، وعلى إثر ذلك كان لا بد أن تظهر موجة مضادة لهذه الموجة ومناقضة لها، وتلك طبيعة الأشياء.

وهذه الموجة التى نعنيها موجة "الزهد والتصوف". فالزهد بُعْد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة، والتصوف: زهد فى الدنيا لكسب رضا الله – عز وجل – والتصوف :

دخول فى جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته، فهو دخول فى مجال التقوى خوفاً من عذاب الله ونقمته وجبروته.

واشتدت حدة هذه الموجة فى العصر العباسى الثانى الذى نحن بصدده. ولكن انحراف الصوفية عن المنهج الصحيح كان سبباً فى أن تنشأ حرب ضروس منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء والمتصوفة، حيث إن الفقهاء كانوا يرونهم خارجين عن الإسلام[2].

وفى القرنين الثالث والرابع يبلغ الشعر الصوفى غايته فى النهضة والازدهار، واتجه الشعر الصوفى فى القرنين الخامس والسادس إلى الحب الإلهى، ومدح الرسول ﷺ والشوق إلى الأماكن المقدسة. وفى هذه الفترة نشأ الأدب الصوفى الفارسى، ونبغ من الفرس "معروف البلخى"، ومن شعراء العربية "الحصرى"، و"مهيار الديلمى"، و"شبد الرحيم البرعى"، وغيرهم.

---

(١) اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى: للمؤلف ا.د/ على الخطيب ص٢١ وما بعدها.

(٢) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٢٧٨ بتصرف، واتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى : للمؤلف/ أ . د / على الخطيب

وفى شعره فى الحب الإلهى، والتغزل بالمشعر الحرام يقول فى إحدى قصائده :

تجلـــت لوحدانيـــة الحـــق أنـــوار ∴ فدلت على أن الجحود هو العار

وأغرقت بداعى الحق كل موحـــد ∴ لمقصد صدق حبذا الدار والجار

- **أما المديح النبوى**: فقد امتاز بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، وشدة التعلق بالرسول ﷺ، وآل بيته. فكان ترجمة صادقة لما يعتمل فى نفس المحب من عشق وهيام، كما كان وسيلة لنيل القرب من الله تعالى.

- **وأما الحب الإلهى عند الصوفيين**: فقد استغرق كثيراً من أشعارهم، بل هو جلها فالحب هو الميل الطبيعى لدى المحب إلى المحبوب، وحب العبد لله يقتضى طاعة أمره وكانت أشعارهم تدول حول معانى الحب، والشوق، والعشق، والوجد، والبقاء والفناء. ويقول ابن الفارض :

سائقَ الأظعانِ يطوي البيدَ طَـيْ ∴ مُنعماً عَرِّجْ على كُثْبانِ طَـيْ

وبذاتِ الشِّيحِ عنِّـي إنْ مَـرَرْ ∴ ـتَ بحيٍّ من غريبِ الحزعِ حيْ

وتلطّفْ واجْـرِ ذكـري عنـدهم ∴ علّهم أن ينظُرُوا عطفا إلـي

قُل تركْتُ الصّـبَ فـيكُم شـبحا ∴ ما لهُ ممّا براهُ الشّوقُ فى [1]

(١)

خصائص الشعر الصوفي :

قد تميز الشعر الصوفى بخصائص فنية ظهرت جلية واضحة فى أشعارهم. ومن أهم هذه الخصائص ما يلى :

أولاً: الغموض والإبهام. وتلك خاصية فى أشعارهم فى الحب الإلهى. حيث كثرة الإشارات، والاستعارات، والتلميح، والكناية.

---

(١) ديوان ابن الفارض ص٧ – دار صادر – بيروت.

ثانياً: إن الشعر الصوفى ينمّ عن شفافية أصحابة، وقوة سلتهم بالله.

ثالثاً: الشعر الصوفى أخذ عن الشعر القديم التوالب الموسيقية، وتميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزى، الذى يوحى بالفكرة، ولا يصرح بها، فالشعر الصوفى ليس شعراً خطابياً مثل جُلّ الشعر العربى ومعظمه، إنما هو شعر أقرب إلى "الرومانسية"، حيث الهيام، والحب، والوجد، وهو أيضاً يقترب من الرمزية الأوروبية، التى تتخذ الرمز الموضوعى الموحى بالعَدْوَى النفسية.

رابعاً: استعار الصوفيون خصائص ألفاظ الشعراء الغزليين والخمريين، وألفاظ حبهم وأسماء محبوباتهم للدلالة بها على معانٍ روحانية.

خامساً: كان لشعر الصوفيين خصائص تميزه عما سواه، من حيث تمثله فى الإكثار من حروف الجر المتتالية، والسجع، والتورية، والكناية، والطِّباق" بصنفة خاصة وكذلك أساليب القَصْر، وقد علل "السهروردى" لهذه الرمزية بأنها تخص الصوفيين وحدهم، وذلك لما لديهم من علم لدنّى خاص بهم[1].

سادساً: من أهم ما يمتاز به الشعر الصوفى، وتميزه عن غيره خصوبة العاطفة، وقوة الشعور، وعمق الوجدان، وفخامة الجرس الموسيقى[2].

ابن الفارض

هو "عمر بن أبى الحسن" الحموى الأصل، المصرى المولد والدار، ويكنى "أبو حفص"، وقيل: هو "شرف الدين أبو القاسم عمر بن الفارض"، وأصل آبائه من "حماة" بسورية العربية، ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة، وتفقه

---

(١) اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى: للمؤلف "مرجع أسبق" ص١٨٦ وما بعدها – ط دار المعارف بالقاهرة ١٤٠٤هـ.

(٢) الأدب الصوفى فى مصر ص٢٨٨ وما بعدها: للدكتور/ على صافى حسين – ط: دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١م.

فى الدين ، وتوسع فى اللغة والأدب، ثم وقع فى نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فاقتفى آثارهم، وعرف أسرارهم، وذهب إلى "مكة"، فزار البقاع، ومكث بها زماناً، ثم رجع إلى "مصر"، فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام، حتى توفى بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة للهجرة (١).

وكان - رحمه الله تعالى - على تقشفه وزهده وورعه وتصوفه، جميل الهيئة حسن البذّة، ظريف المحضر، محمود العشرة، وقوراً، كثير الورع، وكان الناس يلتمسون منه البركات، ويطلبون منه الدعوات، ويقال: إنه عندما ينظم الشعر تأخذه غيبوبة قد تطول إلى عشرة أيام، فإذا أفاق أملى شعره. وقد نشأ "ابن الفارض" فى عصر الدولة "الأيوبية"(٢).

○ وفى هذا العصر تنازع الناس عاملان متباينان، وهما:

الأول: عامل التصوف والتقوى:

الثانى: عامل الفسوق والمجون: وهو الانحلال الخلقى، وتحكّم الشهوات، والحرى وراء الملذّات، ولذلك اتجه الشعر إلى هاتين الوجهتين، فإما أن يراد به الله، أو يراد به الشيطان، وابن الفارض نشأ نشأة دينية، وربى تربية صوفية. فلم يكن بدّ من سلوك طريقة القوم فى شعره، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم. ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل، مريداً بذلك "الذات الإلهية" على اصطلاحهم. فكان ذلك سبباً فى وجود "الرمزية" فى الشعر العربى، والرمز يعنى "الإشارة والتلميح"، يقول صاحب "الكشاف" تقول: رَامز، ورَمَز، كخادم وخدم، ورُمُوز ورُمُز، كرسول ورسل وهو إشارة بالعينين أو الحاجبين، أو اليدين، أو الشفتين، والفم واللسان. وقصر بعضهم الرمز على الشفتين خاصة، ويرى بعضهم أن الرمز أصله "الصوت الخفى" الذى لا يكاد يُفهم، وذلك ما عناه الله - سبحانه وتعالى - بقوله: "قال آيتك

---

(١) تاريخ الأدب العربى: لأحمد حسن الزيات ص١٠٠، وتاريخ الأدب العربى: لكارل بروكلمان ٦٧/٥.
(٢) تاريخ الأدب العربى: للزيات.

ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً"، وقيل: إنه هو الكلام الخفي الذي لا يكاد يُفهم [1].

وابن الفارض من أكثر الشعراء تعمّلاً للكلام، وتلطّفاً للبديع، وولوعاً بالجناس والطباق، وكان شعره يسير مع الركبان؛ لرقّته، واشتماله على ما يرضي أذواق أهل التصوف، والزهد، والعشق، وكذلك أهل "المجون"، فأهل التصوف ينشرون أشعاره في مجالس الذكر، وأهل المجون ينشرونه في مجالس الخمر والخلاعة، فكلٌّ يغنّي على ليلاه ومن أشهر شعر "ابن الفارض" التائية الكبرى، والتائية الصغرى، وتبلغ التائية الكبرى نحوا من ستمائة بيت، ولا يستطيع فهمها إلى من رزقه الله - عز وجل - بالصبر والجَلَد والتحمل على فكّ رموزها، وما حوته من معانٍ وأفكار.

يقول "ابن الفارض" في مطلع التائية الكبرى:

نعمْ بالصبا قلبي صبا لأحبتي ∴ فيا حبذا ذاك الشذى حين هبت

سرتْ فسرتْ للفؤاد عذيبة ∴ أحاديثُ جيرانِ العُذيب فسرّت

مُيممةٌ بالرّوض لمّا رداؤها ∴ بها مرضٌ من شأنهِ برْء علّتي

تذكّرني العهدَ القديمَ لأنها ∴ حديثةُ عهدٍ من أُهيلِ مودّتي [2]

أما جُلّ شعره فالغالب عليه الحنين والشوق إلى "الحجاز"، وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه [3].

ويقول "ابن الفارض" في وصف الخمر الإلهي، وفيها كثرة كاثرة من الرّمز الذي

---

(١) القاموس المحيط.
- العمدة لابن رشيق القيرواني ١/٣١٠.
- سر الشر ص٦١.
- الكشاف: للزمخشري في تفسير "ألا رمزا" ٣/٢١٢ وما بعدها
- لسان العرب لابن منظور - مادة "رمز"

(٢) الديوان ص٣٣ - ط: دار صادر - بيروت - لبنان

(٣) تاريخ الأدب العربي - للزيات ص٤٠٠ وما بعدها.

عُرف به شعراء الصوفية :

شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَـةً ∴ سكِرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ
لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُديرُها ∴ هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجـم
ولولا شذاها ما اهتـديتُ لِحانِهـا ∴ ولولا سَناها ما تصوّرها الـوَهْمُ
ولم يُبْقِ منها الدّهْرُ غيرَ حُشاشَةٍ ∴ كأنّ خَفاها في صُدور النُّهى كـتْم
فإن ذُكِرَتْ في الحَيّ أصبحَ أهلُهُ ∴ نَشاوى ولا عارٌ علـيهمْ ولا إثـم
ومِنْ بينِ أحشاء الدِّنانِ تصاعدتْ ∴ ولم يَبْقَ منها في الحقيقة إلاّ اسـمْ
وإن خطرتْ يوماً على خاطر امـرىءٍ ∴ أقامتْ به الأفراحُ وارتحلَ الهمّ [1]

[1]

ونراه يتغنى بالجمال الرباني فيقول :

تِـهْ دَلالاً فأنْـتَ أهْـلٌ لِـذاكا ∴ وتَحَكّـمْ فالحُسْـنُ قـد أعطاكـا
ولكَ الأمرُ فاقضِ ما أنتَ قـاضٍ ∴ فَعَلَـيَّ الجَمَـالُ قـد ولّاكـا
وتَلافَـي إن كـان فـه ائتلافـي ∴ بك عَجْـلٌ بـه جُعِلْـتُ فِـداكا
فيكَ معنىً خَلاّكَ في عينِ عقلـي ∴ وبـه نـاظري مُعَنّـى جلاكـا
فُقْتَ أهْلَ الجمال حُسْناً وحُسْـنى ∴ فَـبِهِمْ فاقَـةٌ إلـى معناكـا
يُحْشَرُ العاشـقون تحـتَ لِـوائي ∴ وجميعُ الملاحِ تحـتَ لواكـا [2]

ويقول ابن الفارض :

أبرقٌ بدا من جانبِ الغور لامـعُ ∴ أمِ ارتفعَتْ عن وجهِ ليلى البراقـع
أنارُ العضا صاعتْ وسلمى بذي العضا ∴ أمِ ابتَسمتْ عمّا حكتـهُ المـدامع

---

(١) الديوان ص١٤٠ وما بعدها – بيروت – بدون تاريخ .
(٢) دائه ص١٥٦ ، ١٥٩ .

أنشرْ خزامى فاح أم عَرْفُ حاجرٍ ∴ بأمّ القُرَى أم عطْرُ عـزّةَ ضـائع

ألا ليتَ شعري هل سُلَيْمَى مقيمة ∴ بوادي الحمى حيثُ المُتَـيَّمُ والـع

وهل لَعلَعَ الرَّعْدُ الهَتُـونُ بِلَعلَـعٍ ∴ وهل جادها صوب من المُزْنِ هـامع

وهل أُرِدَنْ ماء العُذَيْب وحـاجِر ∴ جِهَاراً وسِرُّ الليلِ بالصبْح شـائع

وهل قاعةُ الوعساء مخْضرّةُ الرُبى ∴ وهل ما مضَى فيها من العيش راجع [1]

[1]

ويقول :

نشَرْتُ في موكب العشّاق أعلامي ∴ وكان قبلي بُلي في الحُبّ أعلامي

وسِرْتُ فيه ولـم أبْـرَحْ بذولَتِـه ∴ حتى وجدْتُ مُلُوك العشْق خُدّامي [2]

[2]

ويقول أيضاً :

هو الحبّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهل ∴ فما اختارَهُ مُضنًى به وله عقْـلُ

وعُدْ خالياً فالحُبّ راحتُهُ عنـاً ∴ وأوّلُهُ سُـقْمٌ وآخـرُهُ قَتْـلُ [3]

الشبلي :

هـو : "دُلَف بن جحدر"، وقيل : "جعفر بن يونس". وقيل : هـو "جعفر بن دُلَف". وقيل غير ذلك، ويكنى "أبو بكر"، وأصل أهله من "أشْروسنة" جنوبي "طَشْقند" الحالية. فهو تركي العرق [4]

---

(١) ـ نفسه ص١٦٦ .

(٢) ـ نفسه ص٢٠٦ .

(٣) الديوان ص١٣٤ .

(٤) السلمي ص٣٥٠، وتاريخ بغداد ٣٨٩/٢ ، وابن خلكان، وشوارد المحاضرة للتنوخي ص١٧٢، والتبيان للصفدي ـ ترجمة ص١١٦، وصفة الصفوة ١٦١/٢، والأنساب : للسمعاني ص٣٢٩، وتذكرة الأولياء للعطار ١٢٧/٢، وحلية الأولياء: لأبي نعيم الأصفهاني ٣٦٧/١٠، وتلبيس إبليس . لابن الجوزي ص٣٠٢، ونشوار المحاضرة: في جزء من ذهب ٣٣٢/٢، وروضات الجنات ص١٦٠، وديوان الشبلي ـ جمع المجمع العلمي العراقي ـ تحقيق: كامل مصطفى الشيبي

رقى أبوه فى قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحُجَّاب، وكان خاله يلى إمرة "الإسكندرية" بمصر، ويبدو أنه استعان به فى عمله لعدة سنوات؛ إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصرياً، وأنه ورد "بغداد" من "مصر". وقد تركت "مصر" و"الإسكندرية" فيه بعض طوابعهما، إذ نراه يعتنق مذهب المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية، ومحافظة "البحيرة" القريبة منها، وعاد إلى "العراق"، فقرَّبه منه "الموفَّق"، ولى عهد "المعتمد" وصاحب الأمر من دونه فى خلافته، واتخذه حاجباً له، ثم ولاه "دُنباوند" بالقرب من "الرَّى"، ويُحْدث منه ما يجعل أمير "الرى" التابع له يصرفه عن عمله، وكان ذا نعمة كبرى عليه، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة، وخاصة مجلس "خير النسَّاج" تلميذ "السَّرِى السقطى"، و"أبى حمزة البغدادى"، وعلى يديه تاب وأناب، ولم يلبث أن لحق "بالجُنَيْد" أستاذ الصوفية "ببغداد" حينئذ، ويقال: إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس، ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم، وفرّق أمواله فى الفقراء، ورجع إلى "الجنيد"، فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق: "لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربَّانى، فإما أن تمنحنيها، وإما أن تبيعنيها" فقال له "الجنيد": "لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها، ألْقِ بنفسك غير هيَّاب فى عُباب هذا المحيط مثلما فعلتُ فعلُك إن صبرت أن تظفر بها".

ومضى "الشبلى" يجاهد، ويَضْنَى فى جهاده، ويَشْقَى طوال حياة شيخه "الجنيد" حتى إذا توفى سنة ٢٩٧هـ صحب "الحلاج"، وكان يزوره فى سجنه، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صوَّرناه آنفاً، وما اتَّصل به من أفكار اللاهوت والناسوت، والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية. فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متبعاً أستاذه "الجنيد" فى اتباع الكتاب والسنة، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى، وبذلك لم يترك "الحلاج" فيه أى أثر.

ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعياً، وقد عرفنا آنفاً أنه كان مالكى المذهب، وهو لذلك يُسْلَك مع أهل السنة، ويقال: إنه لما قُتل "الحلاج" خشى على

نفسه لتردده عليه، فتظاهر بالخبل لئلا يُمْتحَن، وأُدخل "المارستان"، ثم خرج منه، وتفرَّغ للوعظ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم، وكان يحضره "على بن عيسى"، وزير "المقتدر"، وذاع صيته، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فَجّ، وما زال يحتل "ببغداد" هذه المكانة العليّة، حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عاماً.

وكان "الشبلى" فى تصوفه دائماً سُنياً، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة، ويقال: إنه سُئل: "مَنْ أسعدُ أصحابك بصحبتك؟" فقال: "أعظمُهم لحرمات الله، وألهجُهم بذكر الله، وأقْوَمُهم بحق الله، وأسْرَعُهم مبادرة فى مرضاة الله وأعْرَفُهم بقضائه، وأكثرهم تعظيماً لما عظَّم من حُرمة العبادة".

وكان يقول: "إن الله موجود عند الناظرين فى صُنْعه، مفقود عند الناظرين فى ذاته". وسأله سائل: "هل يتحقق العارف بما يبدو له؟" فقال: "كيف يتحقق بما لا يثبت؟! وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر؟! وكيف يأنس بما يخفى؟!" ولم يلبث أن قال:

فمن كان في طول الهوى ذاق سلوةً ∴ فإنّي من ليلى لها غيرُ ذائق
وأكثر شيء نلتَه من وصالها ∴ أمانيُّ لم تصدق كلمحةِ بارق

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود، فضلاً عن الحلول والاتحاد.

وكان ينكر كل ما قيل، أو بعبارة أدق: كل ما قاله "الحلاج" عن تجلى الله فى عبيده ومخلوقاته شئ آخر، وهو يخاطب ولكن لا يُرى ولا يُشاهد، يقول:

وخاطبت موجوداً بغير تكلُّم ∴ ولاحظتُ معلوماً بغير عيان

وكان يقول: "تعززت به وما افترقنا، وكيف نفترق ولم يَجْر علينا حال الجمع أبداً؟!".

وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات، ويُبدى ويعيد فى الحديث عن حُبه ومن قوله: "أُدْخِلْتُ المارستان كذا وكذا مرّة، وأُسْقِيتُ الدّواء كذا وكذا مرّة، فلم أزدد إلا جنوناً".

وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جـــرى حبـــك فـــى قلبـــى ∴ كجـــرى المـــاء فـــى العـــود

وقوله :

هـــذه دراهـــم وأنـــت محـــبٌ ∴ ما بقاءُ الدموع فـــى الأمـــاق

ويطيل الحديث عن عذابه فى حبه، وما يتحمل فيه من أهوال ، وما يكسب من دموع غزار، حتى فى العيد، فالناس فيه يفرحون، ويُعِدُّون الرَّاح والرَّيحان، وآلات الطرب، أما هو فيفيض إلى حزن شديد، ونَوْح وتعديد، حتى لكأنما يحمل تحت ثيابه قبراً فهو دائم البكاء ، دائم النوح ، يقول:

قُبورُ الورى تحت التراب وللهوى ∴ رجال لهم تحت الثياب قبـــور

وعندي دموع لو بَكَيتُ ببعضـــها ∴ لفاضَت بُحورٌ بعدهن بحـــور

وكان يؤمن بالفناء فى الذات الإلهية ، مثل أستاذه "الجنيد"، ولكن لم يكن يَفْنَى فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائماً تصوف صَحْو لا تصوف غَيْب، وإن بدا فى كلامه أحياناً أنّ فناءه إنما يكون فى حال غيبة من مثل قوله وقد سُئل: "متى يكون العارف مشهد الحق؟"، فأجاب: "إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد، وذهبت الحواس، وانمحى الإحساس".

وذُكر عنه أنه كان يقول: "هذا مجنون بنى عامر، كان إذا سُئل عن "ليلى"، يقول: "أنا ليلى"، فكان يغيب بليلى عن "ليلى"، حتى يبقى بمشهد "ليلى"، ويغيبه عن كل معنى سوى "ليلى"، ويشهد الأشياء كلها "بليلى".

ولكن ينبغى ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بامحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود، مثل "الحلاج" إنما يريد الإحساس بالفناء فى الذات العليّة. ومن طريف ما له من ذلك قوله :

تَسرمدَ [1] وقتي فيك فهو مُسَرمد ∴ وأفنيتني عني فعدت محدّدا
وكلي بكل الكل وصلٌ محققٌ ∴ حقائق حق في دوام تخلّدا

وقوله :

تغنّى العودُ فاشتقنا ∴ إلى الأحباب إذ غنّى
وكنّا حيثما كانوا ∴ وكانوا حيثما كنّا

وكان يتكر كل ما تورط فيه "الحلاج" من شعوذات ونيرنجيات، مما رواه عنه بعض مريديه. وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السُكْر، وسأله سائل: هل شاهد الله بحقيقته؟ فقال: "الحقيقة بعيدة، ولكنْ ظنون وأمانيّ وحُسْبان".

من أعلام الشعر في العصر العباسي الثاني

المتنبي:

هو الشاعر "أحمد بن الحسين"، ويكنى "أبو الطيب" المتنبي، وكان صاحب شهرة ملأت الآفاق في الأدب العربي. وقد ولد "بالكوفة". وهي إحدى محافظات "العراق" سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة. ونشأ بها، وتأدب بفصاحة أهل البدو، وأجاد الشعر وأتقنه. فذاع صيته. وعلا شأنه، وظهرت موهبته، وطبقت شهرته الآفاق، وسار حديثه مع الركبان وعرفه القاصي والداني. حتى غدا عَلَماً من أعلام الشعر في العصر العباسي الثاني [2].

وقد ظهر فضل "المتنبي" في بادية "الشام". فحقد عليه حُسّاده، ورموه بادّعاء النبوة وإن كان لا يُعقل أن إنساناً في رجاحة عقل المتنبي، ورحابة خياله، وقوة جَنَانه يدّعي النبوة في وقت رسخت فيه قواعد الإسلام، ورفرفت رايات التوحيد عليه خفاقة في سماء الجزيرة العربية وما يجاورها من البلدان، كما سكنت واستقرت أصول الإسلام وقواعده في قلوب الناس. فكيف يُنسب إلى "المتنبي" مثل هذا الادّعاء؟!

---

(١) السرمد: الدائم. وتسرمد: خلد

(٢) من النصوص الأدبية في العصر العباسي ص١٨١ – مصطفى محمود يونس – ط: ١٩٨٣م.

إنه في رأينا محض افتراء، واختلاق من الحسّاد، وتُرّهات أشاعوها، وشعْبذات نشروها، للنَّيل من هذا الشاعر العملاق.

ودليلنا وصدق كلامنا على ما أومأنا إليه آنفاً: أن "المتنبي" كان يضيق ذرعاً بكل من يلقّبه بهذا اللقب. ودليل آخر على صدق ما ذهبنا إليه: أننا لا نجد في شعره – على كثرته – أثراً لما ادَّعاه حُسّاده عليه وأنه ادّعى النبوة، اللهم إلا ما تأوّله عليه حُسّاده وخصومه فقالوا حسب شهواتهم للنَّيل منه، وهو في ذلك بريْ براءة الذئب من دم ابن يعقوب – عليه السلام- وذلك مثل قوله:

أي محـــــل أرتقـــــي ∴ أي عظـــــيم أتقـــــي

وكـــل مـــا قـــد خلـــق ∴ الله ومـــا لـــم يخلـــق

محتقـــر فـــي همتـــي ∴ كشـــعرة فـــي مفرقـــي

وقوله:

أنا تربُ النَّدى ورَبُّ القَوافي ∴ وَسِمامُ العِدا وغيظُ الحسود

أنـا فـي أمّـةٍ تَـدارَكها اللـ ∴ ـهُ غَريبٌ كَصالحٍ في ثمود

وقد كان من آثار هذه التهمة أنْ سُجِنَه "لؤلؤ" والي "حمص" من قِبَل "الإخشيد"، ثم أطلق سراحه بعد أن مكث طويلاً، وخرج "المتنبي" واللقب البغيض على نفسه يلاحقه في كل مكان، وربما كان سجنه عوض خروجه على الدولة. فقد نُسب إليه أنه انتهز فرصة ضعف الدولة، ودعا إلى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سِنّه فبايعوه، وحين كاد يتم له الأمر وصل خبره إلى والي البلدة، فقبض عليه وحَبَسَه. فالحبس على هذا لم يكن إلا لدعوة سياسية كما رواه "الثعالبي" في "اليتيمة".

لم يجد "المتنبي" بادرة حين خرج من السجن من أن يطوف في البلاد ليمدح كل من لاقاه، عظيماً كان أو حقيراً.

وكان المتنبي لمكانته عند "سيف الدولة" قد اشترط عليه ألا ينشد الشعر قائماً، وأن

لا يقبل الأرض بين يديه، وظل "المتنبى" فى موضع التقدير والإكبار، حتى وشى به حُسّاده عند "سيف الدولة"، وعلى رأسهم الشاعر "أبو نواس الحمدانى"، و"ابن خالويه" النحوى ومؤدب "سيف الدولة"، وصاحب الحظوة عنده، وكان من آثار تلك الوشاية أن زاد "سيف الدولة" فى إيلامه بالاستماع إلى غيره من الشعراء، ومن ذاك لم يطق "المتنبى" صبراً، فألقى قصيدة عصماء يعاتب فيها "سيف الدولة" مُرَّ العتاب، ويهدِّد بالرحيل إلى "مصر" إن لم ينصفه، ولكن الأمير لم يعبأ تهديده، وقد جاء فى القصيدة التى عاتب فيها "سيف الدولة":

يا مَن يَعِزُّ عَلَينا أن نُفارِقَهُم ∴ وِجدانُنا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ

ما كانَ أخلَقَنا مِنكُم بِتَكرِمَةٍ ∴ لَو أنَّ أمرَكُمُ مِن أمرِنا أمَمُ

إن كانَ سَرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا ∴ فَما لِجُرحٍ إذا أرضاكُمُ أَلَمُ

ولما اشتد ما بينه وبين "سيف الدولة" خرج سنة ٣٤٦هـ إلى مصر، قاصداً "كافوراً الإخشيدى"، ولكنه لم ينل منه ما رجاه، فهجاه بعد ذلك، وهرب منه إلى "بغداد" سنة ٣٥٠هـ، وهنا أراد الوزير "المهلبى" أن يوليه عملاً فى خدمته، ولكن "المتنبى" أبى أن يمدح "المهلبى"، فألّب هذا شعراءه على هجائه، وعندئذ توجه "المتنبى" إلى "فارس"، فمدح "عضد الدولة البويهى"[1]، فأسبغ عليه نعمته، ووصله ثلاثة آلاف دينار، وخيول وثياب، ثم دسَّ عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل، إلا أنه متكلف، و"سيف الدولة" كان يعطى طبعاً، فغضب "عضد الدولة" من ذلك ويقال: إنه جهز عليه "فاتكاً الأسدى" فى قوم "بنى ضبة"، فعرض له بالصافية من سواد "بغداد"، واقتتلا، فلما رأى الدائرة عليه همَّ بالفرار، فقال له غلامه:

لا يتحدث الناس عنك بالفرار، وأنت القائل:

الخيل واللّيل والبيداء تعرفنى ∴ والسيف والرمح والقرطاس والقلم

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربى: كارل بروكلمان ٨٢/٢، ٨٣.

فقاتل حتى قُتل، وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤هـ [١].

(١) راجع : تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات ص٣٣٩ .

منزلته الأدبية :

المتنبى خاتم الثلاثة الشعراء، آخر من بلغ شعره الغاية فى الإجادة، وقد أجمع الأدباء على أنه حظى فى شعره بقدر ما حظى به فى ذكره، وأنه بحق أشعر شعراء العربية، وأنه لم يأت بعده من بلغ شأوه أو داناه فى فضله، فهو شاعر "سيف الدولة"، ورجل القوة الطموح، احتك بالقرامطة، فأخذ عنهم حب الثورة، والميل إلى انتفاضة العنفوان، واحتك بذوى الأمر والأمراء، فذاق مرارة الخيبة، وسعى وراء العظمة والمراتب العليا، فعرف حطمة الطموح، وحسده الناس وآلموه، فكان صدره بركاناً ينفث حمماً ونيراناً، وقال شعراً فكان شعره ترجمان قلبه الطموح الساخط، وكان محملاً بالحكم والأمثال، جمعها "الصاحب بن عباد" "لفخر الدولة البويهى". ونشرها "زهدى يكن" بعد أن شرحها، وحفظ ألفاظها، وعلّق عليها، ومما جاء فيه :

"لم يكن "المتنبى" فيلسوفاً بمعنى الكلمة الصحيح، إذ ليس له آراء شاملة فى أصل العالم أو الحياة، أو الأخلاق يقوم عليها نظام من الفكر متصل متماسك، وإنما له خطوات فى الحياة والأحياء منثورة هنا وهناك، لا يجمع بينها سوى نفس الشاعر، والجو الذى يصبح فيه، وهو لا يتوفر على تعليل هذه الخطوات ودعمها منطقياً بتؤدة وإسهاب، شأنه شأن الفلاسفة، ولكنه شديد الاعتقاد بها، شديد الإثبات لها، وكثيراً ما يدعمها بصورة مؤثرة، أو دليل موجز، يقر بصحتها فى نظره بقوة جازمة، وهو كثيراً ما يأتى بحكمه وأمثاله لإيضاح فكرة أو للبرهان عليها.

أما ما مصدر حكمته ؟ فهو قبل كل شئ نفسه، وتجاربه، وإلهامه، لا دراسة الفلسفة أو التأملات فيما وراء الزمان والمكان، وإن كان قد استقى أحياناً بعض حكمه مما وصل إليه من نظريات اليونان وآرائهم. ومما اطلعت عليه ثقافته[1].

عاصر "المتنبى" فطاحل الشعراء : "كأبى فراس الحمدانى"، وكشاجم"، و"الرفاء"

---

(١) من النصوص الأدبية فى العصر العباسى الثانى ص ٢٠ وما بعدها : د/ جبر .

و"النامي"، و"الوأواء الدمشقي"، و"السعدي"، ومع نبوغهم في الشعر ومكانتهم بين أرباب الأدب، وعلوّ كعبهم فقد تفوق عليهم جميعاً، ولم ير شاعراً قديماً أو حديثاً عنى الناس بدراسة شعره، وتناولوه بالنقد والشرح مثل "المتنبي"، ما من كاتب ولا خطيب، ولا مدرس إلا وله من حِكَم "المتنبي" مدد، ومن دَرْسَ شعر "المتنبي"، وبين حسنه وقبيحه "أبو منصور الثعالبي" في الجزء الأول من "يتيمة الدهر"، فإنه بيَّن بالتفصيل حسناته وسيئاته مع سائر أخباره في نحو مائة صفحة.

وقد جَمَعَ ديوان "المتنبي"، ورتَّبه حسب الحروف الأبجدية، وشرحه كثير، منهم: "ابن جني"، و"الواحدي"، و"التبريزي"، والعكبري"، و"اليازجي" وكثير غيرهم.

قال المتنبي في كل الموضوعات: في الوصف، والغزل، والفخر، والهجاء ووصف المعارك الحربية.

وفي شعره يقول الأستاذ / "أحمد حسن الزيات": "المتنبي" شاعرمن شعراء المعاني وفق في الجمع بين الشعر والفلسفة، وجعل أكثر اهتمامه بالمعاني، وأطلق الشعر من القيود، وخرّج به من أساليب العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي، وحظي شعره بالحكم والأمثال، والإبداع في وصف القتال، وإجادة التشبيب وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع المديح، وإجادة الهجاء، وأخصّ ما يبرد بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، واعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس، وخصائص الوجود، وأغراض الحياة.

نموذج من شعره :

قال يتفلسف :

نَحنُ بَنو المَوتى فَما بالُنا ∴ نَعافُ ما لا بُدَّ مِن شُربِهِ
تَبخَلُ أَيدينا بِأَرواحِنا ∴ عَلى زَمانٍ هِيَ مِن كَسبِهِ
فَهَذِهِ الأَرواحُ مِن جَوِّهِ ∴ وَهَذِهِ الأَجسامُ مِن تُربِهِ
لَو فَكَّرَ العاشِقُ في مُنتَهى ∴ حُسنِ الَّذي يَسبيهِ لَم يَسبِهِ

وقال :

وَمُرادُ النُفوسِ أَصغَرُ مِن أَن ∴ نَتَعادى فيهِ وَأَن نَتَفانى
غَيرَ أَنَّ الفَتى يُلاقي المَنايا ∴ كالِحاتٍ وَلا يُلاقي الهَوانا
وَلَو أَنَّ الحَياةَ تَبقى لِحَيٍّ ∴ لَعَدَدنا أَضَلَّنا الشُجعانا
وَإِذا لَم يَكُن مِنَ المَوتِ بُدٌّ ∴ فَمِنَ العَجزِ أَن تَكونَ جَبانا

عيوب شعره :

بعض شعره أحيانا يعسر فهمه، وتبعد غايته منه، فيطيش سهمه، وقد وقع فى بعض المساوئ، مثل: استكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب، ومخالفة القياس وكثرة التفاوت فى شعره، والخروج فى المبالغة إلى الإحالة، كقوله :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ∴ ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقوله :

أنى يكون أبا البرايا آدم ∴ وأبوك والثقلان أنت محمد

وتقديره :

أنى يكون آدم أبو البرايا ∴ وأبوك محمد وأنت الثقلان

أبو فراس الحمداني :

هو الشاعر "الحارث بن سُعَيد بن حَمْدَان بن حَمْدُون بن الحارث"، ويكنى "أبو العلاء"، ولد فى "الموصل" سنة "عشرين وثلاثمائة" للهجرة، ونشأ "أبو فراس" يتيماً حيث إن "ناصر الدولة" أخاه "سيف الدولة" كان قد قتل أباه، فكفله "سيف الدولة" وتنقلت به أمه بين "الموصل" و"آمد"، و"ميّافارقين"، و"ماردين"، و"الرقة"، ثم ألقت به عصا التسيار، واستقرت به فى "مَنْبج" قرب "حلب"، وتلقى "أبو فراس" علوم زمانه على علماء بلاط "سيف الدولة"، وكان من أشهر هؤلاء العلماء "ابن خالويه"، ولما بلغ من العمر ستة عشر عاماً قلده "سيف الدولة" ولاية "مَنْبج"، و"حرّان"، وعهد إليه بالدفاع عن التخوم الشمالية، والبلاد المجاورة لها ضد "الروم"، وبقتال القبائل البدوية التى تشق عصا الطاعة على "آل حمدان"، وفى سنة "سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة" دخل "المتنبى" بلاط "سيف الدولة"، وأراد "سيف الدولة بذلك" أن يأذن لشمس "أبى فراس" بالأفول والمغيب، وأن يكسف نورها فى الشعر والحرب، وأن ينال منه ومن شاعريته وفروسيته، فجاء "المتنبى" منافساً له فى البلاط الحمدانى، ثم وقع "أبو فراس" فى أسْر "الروم"، وكان ذلك فى شهر شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة للهجرة، وبقى فى أسره إلى شهر رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للهجرة، والتى توافق سنة ست وستين وتسعمائة للهجرة، ولم يرغب "سيف الدولة" فى افتدائه من الأسر افتداء خاصاً بعظيم من عظماء الروم، بل تركه فى أسره يعانى آلامه وأحزانه، ويجنى ثمرة فروسيته حتى فودى بالطرق المعتادة فى مبادلة الأسرى وتوفى "سيف الدولة" وشيكاً من شهر صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة، والذى يوافق شهر يناير سنة سبع وستين وتسعمائة من الميلاد، فخلفه ابنه "أبو المعالى"، فاستند "أبو فراس" "بحمص"، ثم وقعت الحرب بينهما – يعنى "أبى فراس" و"أبو المعالى" – فسقط "أبو فراس" فى المعركة قتيلاً فى الثالث من جمادى الأولى سنة "سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة".

و"أبو فراس شاعر مطبوع، مشبوب العاطفة ، يقول الشعر إرضاء لنفسه، ولم يتخذ الشعر حرفة، وكان شعره شعراً وجدانياً خالصاً، يدور على فنين : وهما الفخر ، والغزل . وهو من أتباع المذهب الشامي، بَيْد أن شعره يبدو عليه الضعف أحياناً أو شئ منه، وجاء غزله في المؤنث رقيقاً، عفيفاً، وبعض شعره صريح، وفخره على عمود الشعر متين فخم وله وصف للطبيعة والخمر، وقد نظم "أبو فراس" في أسره قصائد عرفت "بالأسريات" و"الروميات" ، وكان بعضها "إخوانيات" . وكان يرسلها إلى إخوانه، مثلما ترسل الرسائل بَيْد أنه لم يظهر على هذه "الروميات" خصائص جديدة، سوى أنها كانت أكثر رقة، وأكثر شكوى، وقد صنع ديوانه بنفسه [1].

صفاته وأخلاقه:

كان "أبو فراس" بطلاً سخياً معجباً بنفسه، وشعره كثير الفخر بأصله وقومه، عَروفاً عن الشراب والمجون، وهو القائل :

لَئِن خلقَ الأنـامُ لَحسـوِ كَـأسٍ ∴ ومِزمـارٍ وطُنبـورٍ وعـودِ
فَلَم يُخلـق بنـو حمـدانَ إلّـا ∴ لمجدٍ أو لبـأسٍ أو لجـودِ [2]

خصائص شعره :

شعره على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، ولكن عليه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك. وكان "الصاحب بن عباد" يقول: "ختم الشعر بملك" ويعني بذلك "امرأ القيس" . و"أبا فراس" ، وقد نظم في أغلب فنون الشعر، فأجاد إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، أما "رومياته" فهي أجل وأدل على فضله ومن أروع قصائده قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم: إن "أبا فراس" وحده من بين

---

(١) تاريخ الادب العربي : د/ عمر فروخ ٩٥/٢ وما بعده بتصرف – ط: دار العلم للملايين – بيروت لبنان – الطبعة الاولى سنة ١٩٦٨م ، والطبعة الرابعة سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) تاريخ الأدب العربي : لكارل بروكلمان ٩٢/٢

* الديوان ص٩٧ – ط: دار صادر – بيروت – لبنان سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

* لحسو كأس : من الاحتساء وهو الشرب ، احتسى الشئ : شربه

الأسرى هو الذى لم يسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه :

أراكَ عَصيَّ الدمعِ شيمَتُكَ الصبرُ ∴ أما للهوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أمرُ

بَلى أنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ ∴ وَلَكِنَّ مِثلي لايُذاعُ لَهُ سِرُّ

مُعَلِّلَتي بِالوَصلِ وَالمَوتُ دونَهُ ∴ إذا مِتُّ ظَمآناً فَلا نَزَلَ القَطرُ

تُسائِلُني مَن أَنتَ وَهيَ عَلَيمَةٌ ∴ وَهَل بِفَتىً مِثلي عَلى حالِهِ نُكرُ

فَقُلتُ كَما شاءَت وَشاءَ لَها الهَوى ∴ قَتيلُكِ قالَت أَيُّهُم فَهُمُ كُثُرُ

فَقالَت لَقَد أَزرى بِكَ الدَهرُ بَعدَنا ∴ فَقُلتُ مَعاذَ اللَهِ بَل أَنتِ لا الدَهرُ

ومنها :

أسِرتُ وَما صَحبي بِعُزلٍ لَدى الوَغى ∴ وَلا فَرَسي مُهرٌ وَلا رَبُّهُ غَمرُ

وَلَكِن إِذا حُمَّ القَضاءُ عَلى امرِئٍ ∴ فَلَيسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ وَلا بَحرُ

يَمُنّونَ أَن خَلّوا ثِيابي وَإِنَّما ∴ عَلَيَّ ثِيابٌ مِن دِمائِهِمُ حُمرُ

سَيَذكُرُني قَومي إِذا جَدَّ جِدُّهُم ∴ وَفي اللَيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ

وَنَحنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عِندَنا ∴ لَنا الصَدرُ دونَ العالَمينَ أَوِ القَبرُ

تَهونُ عَلَينا في المَعالي نُفوسُنا ∴ وَمَن خَطَبَ الحَسناءَ لَم يُغلِها المَهرُ

أَعِزُّ بَني الدُنيا وَأَعلى ذَوي العُلا ∴ وَأَكرَمُ مَن فَوقَ التُرابِ وَلا فَخرُ [1]

(١)

---

(١) الديوان ص١٦٠ ، ١٦١ – ط: دار صادر بيروت – لبنان ، عصر الدول والإمارات (مصر والشام) أ.د/ شوقي ضيف ص٧١٠ .

الغمر : غير المجرب – يعني : الذى ليست له دُربة وخبرة . المهر : الفرس الصغير – حم: قضى وقُدر – لم نغله المهر: لم نستكثر عليها المهر – ويروى: "لم يغلها المهر" يعني: من يخطب الحسناء لا يستكثر عليها شيئاً.

ويقول فى استعطاف "سيف الدولة" :

بمَن يثِقُ الإنسانُ فيما يَنوبُهُ ∴ ومِن أينَ لِلحُرِّ الكَريمِ صِحابُ
وقَد صارَ هذا الناسُ إلّا أقَلَّهُم ∴ ذِئاباً علَى أجسادِهِنَّ ثِيابُ
تَغابَيتُ عَن قَومي فَظَنّوا غَباوَتي ∴ بِمَفرِقِ أغبانا حَصىً وتُرابُ
ولَو عَرَفوني حَقَّ مَعرِفَتي بِهِم ∴ إذاً عَلِموا أنّي شَهِدتُ وَغابوا
وما كُلُّ فَعّالٍ يُجازى بِفِعلِهِ ∴ وَلا كُلُّ قَوّالٍ لَذيٍّ يُجابُ
ورُبَّ كَلامٍ مَرَّ فَوقَ مَسامِعي ∴ كَما طَنَّ في لَوحِ الهَجيرِ ذُبابُ
إلى اللَهِ أشكو أنَّنا بِمَنازِلٍ ∴ تَحَكَّمُ في آسادِهِنَّ كِلابُ [1]

ويقول أيضاً :

أمِن بَعدِ بَذلِ النَفسِ فيما تُريدُهُ ∴ أُثابُ بِمَرِّ العَتبِ حينَ أُثابُ
فَلَيتَكَ تَحلو والحَياةُ مَريرَةٌ ∴ وَلَيتَكَ تَرضى والأَنامُ غِضابُ
ولَيتَ الَّذي بيني وبينَكَ عامِرٌ ∴ وبيني وبَينَ العالَمينَ خَرابُ
إن صَحَّ مِنكَ الوُدَّ فالكُلُّ هَيِّنٌ ∴ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابُ [2]

[2]

والبيت الأخير غير موجود فى ديوانه ، طبع دار صادر – بيروت – لبنان – عام ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، بَيْد أنه فى طبعة : دار صعب – بيروت – لبنان ، وجدته مثبوتاً كما يلى :

إن صَحَّ مِنكَ الوُدَّ فالمالُ هَيِّنٌ ∴ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابُ [3]

---

(١) الديوان ص٢٥ .
(٢) ذاته ص٢٧

(١)

وقد نسبت هذه الأبيات للمتصوفة والزاهدة الشهيرة "رابعة العدوية" . وقد يكون هذا من قبيل الاقتباس، أو توارد الخواطر.

---

(١) الديوان – ط: دار صعب – بيروت – لبنان – ص٢٧ .

الشريف الرضي:

هو الشاعر "محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين"، ويكنى "أبو الحسن"، وهو من سلالة الإمام "جعفر الصادق" رضي الله عنه وُلد "الشريف الرضي" سنة "تسع وخمسين وثلاثمائة" للهجرة في "بغداد"، ونشأ في حجر والده، ودرس العلم في طفولته، فبرع وبرز في "الفقه"، و"علم الفرائض" يعني "المواريث"، ونبغ في العلم والأدب، وتفتقت شاعريته. وظهرت نجابته في وقت باكر من الزمن، حيث إنه قرض القريض، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين.

وقد نهل "الشريف الرضي" من حياض العلماء، وكرع من نميرهم السلسال. ومنح من ركائز علماء عصره، بأرْشيَة قوية، وأشطان فتيّة، وكان ذلك في مدينة "بغداد" من علماء الشيعة، وغيرهم من أمثال "علي الفارسي"، و"ابن جني". و"المرزوقي" في اللغة والنحو، و"القاضي عبد الجبار" في الاعتزال، والشيخ "المتعمد" في الفقه. كما أقبل على كتب التفسير، ينهل من مواردها العذبة، ويرتشف أفاويق المعاني، والبلاغة، والبيان. كما أقبل على كتب "الحديث النبوي" ينهل منها، ويُفيد من معانيها وإرشاداتها. على نحو ما يتضح في كتابه "المجازات النبوية" كما أنه قام بجمع خطب الإمام "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه – في السِّفر المعروف باسم "نهج البلاغة"[1].

ولما بلغ "الشريف" التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبين. ثم ضمت إليه مع النقابة سائل الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم. والحج بالناس.

وبقي في هذه الأعمال حتى تغير الخليفة "القادر" لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين، فصرفه عنها. فعاش عيش الضائع. حتى قبضه الله إليه سنة ٤٠٦هـ. ودفن بداره في "الكرخ" ببغداد

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – ايران): د/ شوقي ضيف ص٣٧٠، وأيضا: تاريخ الأدب العربي. للزيات

وكان من صفات "الشريف الرضى" أنه أبيّ النفس، عالى الهمة، وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة، حتى بلغ من تشدده فى الفقه أنه رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء، واجتهد "بنو بويه" أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا.

مؤلفاته :

ألّف فى معانى القرآن الكريم كتاباً يدل على تضلعه فى النحو واللغة وأصول الدين وكتاباً آخر فى مجازات القرآن، وله مجموعة رسائل، وديوان شعر، وكتاب "نهج البلاغة" وهو ما جمعه من كلام الإمام "على بن أبى طالب" – رضى الله عنه – والظاهر أنه جمع كل ما نُسب إلى الإمام، وفيه الصحيح، والمشُوب[1].

شعره :

يدل شعره على أنه تأثر أشد التأثر "بالمتنبى"، فقد أكبّ عليه يقرؤه، محباً له، متعاطفاً معه، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان، وأنه لا يعطيه ما يستحقه، وكان يشعر فى أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح يزخر – مثل مديح "المتنبى" – بالفخر، والشكوى من الأيام – حتى يقول "للقادر":

عَطفاً أميرَ المؤمنينَ فإنّنا ∴ في دَوحَةِ العَلياءِ لا نَتَفَرّق
ما بَينَنا يَومَ الفَخارِ تَفاوُتٌ ∴ أبَداً كِلانا في المَعالي مُعرِقُ
إلّا الخِلافَةُ مَيّزَتكَ فَإنّني ∴ أنا عاطِلٌ مِنها وَأنتَ مُطَوّقُ

وقد نهج فى شعره نهج الأقدمين، فى جزالة اللفظ، وفخامة المعنى، وشعره أشبه بشعر "البحترى" إلا أنه غلب فى الفخر والحماسة ... وقال "الثعالبى" فيه: "هو أشعر الطالبيين" من معنى منهم ومن غير، على كثرة شعرائهم المفلقين، لو قلت إنه أشعر قريش

---

(١) عصر الدول والإمارات: د/ شوقى ضيف ص٣٧٢.

ثم أبعد عن الصدق". ثم قال بعد ذلك: "ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه".

نموذج من شعره:

قال يفتخر من قصيدة يمدح بها أهل البيت:

لغير العُلى مني القلى والتجنُّبُ ∴ ولولا العلى ما كنتُ في الحبِّ أرغبُ

إذا الله لم يعذرك فيما ترومُهُ ∴ فما الناسُ إلّا عاذلٌ أو مؤنِّبُ

ملكتُ بحلمي فرصةً ما استرقّها ∴ من الدهر مفتولُ الذراعين أغلبُ

فإن تكُ سنّي ما تطاولَ باعُها ∴ فلي من وراء المجد قلبٌ مُدرّبُ

فحسبي أنّي في الأعادي مُبغَّضٌ ∴ وأنّي إلى غُرِّ المعالي محبّبُ

وللحلم أوقاتٌ وللجهل مثلُها ∴ ولكنّ أوقاتي إلى الحلم أقربُ

يصولُ عليّ الجاهلون وأعتلي ∴ ويُعجمُ فيّ القائلون وأعربُ

يرون احتمالي غصّةً ويزيدُهم ∴ لواعج ضغن أنني لستُ أغضبُ [1]

(١)

ويقول – رحمه الله – من قصيدة قالها وله من العمر "عشر سنين": ثم هذّبها وأسقط منها أشياء. يقول فيها:

المجدُ يعلمُ أنّ المجد من أربي ∴ ولو تماديتُ في غيٍّ وفي لعب

إنّي لمن معشرٍ إن جمّعوا لعلىً ∴ تفرّقوا عن نبيٍّ أو وصيّ نبي

وإن عزمتُ فعزمي يستحيلُ قذىً ∴ تدمى مسالكُهُ في أعيُن النُوب [2]

(٢)

---

(١) ديوان الشريف الرضي – صححه وعلق عليه: الدكتور/ احسان عباس – دار صادر – بيروت ص١٠٢، ١٠٨.

(٢) الديوان ص١١٢ وما بعدها.

وقال يفخر بآل البيت – رضى الله عنهم – ويذكر قبروهم ويتشوّقها :

ألا للّـــهِ بـــادرةُ الطبـــلابِ ∴ وعَـــزمٌ لا يُـــروّعُ بالعتـــابِ
وكُلُّ مُشَـــمِّرِ البُـــردينِ يَهـــوي ∴ هُوِيَّ المُصلتاتِ إلى الرقـــابِ
أُعاتِبُـــهُ علـــى بُعـــدِ التّنـــائي ∴ ويعذُلُني على قُـــربِ الإيـــابِ
رأيتُ العَجـــزَ يخضـــعُ للّيـــالي ∴ ويَرضى عَن نَوائبِها الغِضابِ
ولَـــولا صَـــولةُ الأيّـــامِ دونـــي ∴ هَجَمتُ على العُلى مِن كُلّ بابِ
ومِن شِيَمِ الفتـــى العربـــيِّ فينـــا ∴ وصالُ البيضِ والخيلِ العرابِ
سقى اللّهُ المَدينـــةَ مـــن مَحَـــلٍّ ∴ لُبابَ الماءِ والنُطَـــفِ العـــذابِ
وجـــادَ علـــى البقيـــعِ وســـاكنيهِ ∴ رخيُّ الذيلِ مـــلآنُ الوطـــابِ
وقبراً بـــالطفوفِ يضُـــمُّ شـــلواً ∴ قضى ظمأً إلى بَردِ الشـــرابِ
وســـامرّا وبغـــدادا وطوســـاً ∴ هُطولُ الودقِ مُنخرقِ العُبـــابِ
قُبـــورٌ تَنطُـــفُ العبـــراتُ فيهـــا ∴ كما نطفَ الصبيرُ على الروابـــي
فلو بخلَ السحابُ علـــى ثراهـــا ∴ لذابَت فوقها قطَـــعُ السـراب
صَلاةُ اللّـــهِ تَخفُـــقُ كُـــلَّ يـــومٍ ∴ عَلى تلكَ المَعالمِ والقبـــابِ [1]

وقال يفتخر :

إنّـــا نعيـــبُ ولا نُعـــابُ ∴ ونُصـــيبُ منـــكَ ولا نُصـــابُ
آلُ النبـــيِّ ومـــن تفـــلّ ∴ لب فـــي حُجـــورهمُ الكتـــابُ

---

(١) الديوان ص١١٣ الى ص١١٥ الشلو : الجسد ، وأراد به جسد "الحسين بن على" – رضى الله عن آل البيت تنطف: تسيل الصبير: السحاب

خُلقت لهم سُمرُ القنا ∴ والبيضُ والخيلُ العرابْ
فاسقني حيا وكا إن ∴ نما الأيامُ غنمٌ أو نهابْ
من لذ ورد الموت لا ∴ يصفو له أبداً شرابْ [1]

وقال فى قصيدة متشعّبة الأغراض والفنون :

دوامُ الهوى في ضمانِ الشبابِ ∴ وما الحبُّ إلّا زمانُ التصابي
أحين فشا الشيبُ في شعره ∴ وكتّمَ أوضاحهُ بالخضابِ
تروعين أوقاتهُ بالصدودِ ∴ وترمين أيامهُ بالسبابِ
تحطّى المشيبُ إلى رأسه ∴ وقد كان أعلى قباب الشبابِ
كذاك الرياحُ إذا استلأمت ∴ تقصّف أعلى الغصون الرطابِ
مشيبٌ كما استلّ صدرُ الحسا ∴ م لم يرو من لبثه في القرابِ
نضي فاستباح حمى الملهياتِ ∴ وراع الغواني بظفرٍ ونابِ
والهوى بجدّة أيامه ∴ فأصبح مقذىً لعين الكعابِ [2]

وقال أيضاً :

أغدرا يا زمانُ ويا شبابُ ∴ أصابَ بذا لقد عظُم المصابُ
وما جزعي لأن غربَ التصابي ∴ وخلّق عن مفارقي الغرابُ
فقبل الشيبِ أسلفتُ الغواني ∴ قلىً وأمالني عنها اجتنابُ
عففتُ عن الحسان فلم يرُعني ∴ المشيبُ ولم ينزّقني الشبابُ
تجاذبني يدُ الأيامِ نفسي ∴ ويوشكُ أن يكونَ لها الغلابُ
وتغدرُ بي الأقاربُ والأداني ∴ فلا عجبٌ إذا غدر الصحابُ [3]

---

(١) الديوان ص١١٧
(٢) الديوان ص١٢١

"مهيار الديلمى" نشأته وخصائص شعره :

هو "أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمى"، كان ديلمى الأصل، مجوسى الديانة، ثم تتلمذ "للشريف الرضى"، وأسلم على يديه سنة ٣٩٤هـ، ثم عاش منذ ذلك الحين "ببغداد". وتوفى يوم ٥ من جمادى الآخرة سنة ٤٢٨هـ.

ويبدوا أنه كان فيه ذكاء حاد، جعله يحسن العربية سريعاً، ويروى أنه كان يسكن فى "الكرخ" مستقر شيعة "بغداد" الإمامية، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكى يدرس عقيدتهم، حتى إذا أسلم انتظم فى سلكها.

وقد أعانه "الشريف الرضى" فى أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب "الكاتب".

تولاه بالعناية، ورعاه أديباً أستاذه "الشريف الرضى"، عندما رأى فيه استعداداً حسناً، فمضى معه يثقفه، ويدربه حتى خرجه شاعراً بارعاً ...فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه، وهو نسيج يلاحظ من جهتين: جهة معارضته لكثير من قصائد "الرضى". يأخذ منه الوزن والقافية، وينظم على غرارها. وجهة ثانية لعلها أهم، وهى تمثل اتجاهاته الشعرية، ونقصد اتجاهات الشكوى، فإنه يشكو كثيراً سوء بخته، وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى، بل يقف حجر عثرة دون أمانيه.

ففى بواكير حياته اتجه يفخر بقومه، فاستحال فخره شعوبياً ذميماً ... ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية، ويملأ شعره بالحنين إلى "نجد"، وبدوياتها الفاتنات مستلهما فى ذلك أستاذه "الرضى"، بمثل قوله :

قد تذوّقتُ الهوى من قبلها ∴ وأرى مُعذبةً قد أملحا

سل طريقَ العيس من وادي الغضا ∴ كيف أغسقت لنا رأد الضحى

ألشيء غير ما جيراننا ∴ نفضوا نجدا وحلّوا الأبطحا

يا نسيم الصبح من كاظمةٍ ∴ شدّ ما هجت الجوى والبُرَحا

الصِّبا إن كـان لابـدّ الصِّبـا ∴ إنهـا كانـت لقلبـي أروَحـا
يا نـداماي بسـلْعٍ هـل أرى ∴ ذلـك المَغْبـوقَ والمصـطَبَحا
أنكرونـا نكرَتنـا عهـدَكُمْ ∴ ربَّ نكرى قرَّبتْ مَـن نَزَحـا
واذكروا صبّاً إذا غنَّـى بكـم ∴ شربَ الـدمعَ وعـاف القَـدحَا
رجـعَ العـاذلُ عنـي آيسـاً ∴ من فؤادي فـيكُمُ أن يُفلِحـا (١)

لقد كان "مهيار" أجنبياً عن اللغة، وكان لذلك تأثير واسع فى صناة الشعر عنده؛ إذ كان يصل فى أحوال كثيرة التعبير عن المعانى الدقيقة، فيسقط إلى ألوان من الإسفاف تذيع سر المهنة عنده؛ لذلك كان لا يُحسن التعبير الجاد عما فى نفسه. فقد سلمت له نشأة "فارسية" أو قل "مجوسية"، لذلك كانت قصائده تمتلئ بنوافذ يُشْرف منها الإنسان على "فارس". ولولا أنه أخذ نفسه بالأسلوب العربى، أو تخرج على يد شاعر عربى أصيل – هو "الشريف الرضى" – لكان لفارسيّته وأجنبيته عن اللغة العربية أثر أوسع.

على أن هناك جانباً مهماً كان يؤثّر فى شعر "مهيار" تأثيراً واسعاً، هو ما يمتاز به من مزاج خاص، وهو مزاج فيه رقّة، وحدة فى الحسّ. وقد نما ما انتهت إليه الحضارة العربية من ترف شديد، حتى لينقلب إلى ضرب غريب من الدماثة والليونة. ما يزال ينتشر فى جميع أطراف شعره.

كان يلفق قصائده على طريقة الشعراء الذين عاصروه، ولم يعتد فى ذلك على الثقافة "كالمتنبى" مثلاً. انظر كيف تحولت الفكرة القديمة عنده فى الأبيات الآتية :

هل عند هـذا الطلـل الماحـل ∴ من جلَدٍ يُجـدي علـى سـائل
أصـمُّ بـل يسـمع لكنـه ∴ من البلَـى فـي شُـغْل شـاغل
وقفـتُ فيـه شـبحاً مـاثلاً ∴ مرتفـداً مـن شـبح ماثـل

---

(١) ديوان مهيار الديلمى – شرحه وضبطه : أحمد نسيم – الجزء الأول – منشورات مؤسسة الاعلمى للمطبوعات – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ص١٧٧ .

ولا ترى أعجب من ناحل ∴ يشكو ضنا الجسم إلى ناحل [1]

أساس الفكرة فى هذه الأبيات هو أنه رَسْمٌ يبكى رَسْماً. وهى فكرة "المتنبى" ، بل فكرة "أبى تمام" من قبله، وكل ما جاء به "مهيار" من جديد أنه عَمَد فيها إلى التطويل والتفصيل، ولكنْ ألا يَشعر القارئ – على الرغم مما وفق إليه "مهيار" من إحكام الصوت فى هذه القطعة – أن الأبيات لا تبلغ من التأثير ما يريده الشاعر ، فقد تقاربت الأفكار وأصبح الأسلوب هادئاً. ليس فيه عنف العاطفة، ولا حدة التعبير الأصيل، إنه أسلوب نثرى.

وكان فى غزله يميل إلى الميوعة، فقد كان فيه إفراط فى الحسّ والشعور والرقة تنساب فيه ألوان من الذلة والطواعم، فقد خُلق رقيق القلب، هى رقة تخرج عن الحدود المألوفة، كما أنه يتكلّف الليونة، والدماثة والحسّ.

وهناك جانب آخر يلحظ فى غزله، وهو ما نراه عنده من تشبثه بالعناصر البدوية وحشدها فى قصائده، بحيث لا يمر غزل فى قصيدة دون أن نحسّ بأنه لشاعر يقيم فى "نجد" أو فى "الحجاز" ، فدائماً صاحبته إمّا "مها" ، أو "الرباب" ، أو "ليا" ، أو "سعدى" ، وهى من سكان "منى" ، أو "الخيف" ، أو "قباء" .. ولذلك فهو يكثر من ذكر الأماكن الحجازية والبدية، مثل "أحد" ، "أضم" ، و"زمزم" .. ولعل هذه الحال من التبدّى فى الغزل تسرّبت للشعراء من تأثرهم بأساليب المتشيّعة، والمتطرّفة فى شعرهم الخاص.

وإذا أردت أن تتعرف على العناصر البدوية فى غزليّاته فانظر إلى قوله :

سل طريق العيس من وادي الغضا ∴ كيف أغسقتَ لنا رَأْدَ الضحى

ألشـــيء غيـــر مـــا جيرانـنـــا ∴ نفضوا نجدا وحلّوا الأبطحـــا

يا نسيم الصـــبح مـــن كاظمـــة ∴ شدّ ما هجت الجوى والبرحـــا

---

(١) الديوان ص١٠٠ .

وتحول المديح عند "مهيار" إلى ضرب من المديح الباهت ، ولم يستطع أن ينوّع في معاني المديح ، فقد كانت تنقصه الثقافة والعمق ، وقد راح يطيل ويسرف في التطويل ويبسط الأفكار والصور القديمة ، وقد أصبحت قصيدة المديح عنده قصيدة "مُنَاسَبَة" ، ولم يعد لها شئ من اللذة ، والورقة الفنية ، فتحول شعر المديح إلى ما يمكن أن نسمّيه "شعر التهاني" ، أو "شعر المناسبات" [1].

أبو العلاء المعري وخصائص شعره :

هو الشاعر الفيلسوف "أحمد بن عبد الله بن سليمان" ، ويكنى "أبو العلاء" التنوخي نسبة إلى "تنوخ" ، و"تنوخ" على ما ذكر "ابن خلّكان" اسم عُرف لعدّ قبائل أقامت في "البحرين" ، وتحالفت على التعاون والتناصر ، وهو يكنيته أشهَر .. ويبدو أنه لم يكن راضياً لا عن كنيته ولا عن اسمه : لأنه لم يكن يرى في نفسه كُفْؤاً لهما ، وفي لزومياته إشارات عديدة إلى ذلك ، منها قوله :

دُعيتُ أبا العَـلاء وذاك مِـنّي ∴ ولكن الصحيحُ أبو النُزولي [2]

(٢)

وقال في اسمه الأوّل :

وأُحمَدُ سـمّاني كَبيـري وقلّمـا ∴ فعلتُ سوى ما أستحقُّ به الذمّا [3]

(٣)

ويلقب "بالمعري" نسبة إلى "المعرّة" ، وهي مسقط رأسه ومَدْرَج صباه ، وهي بلدة تقع على مسيرة يوم جنوبي "حلب" ، وقد كانت تُعرف "بمعرّة حمص" ، قبل الفتح الإسلامي فعُرفت بعده "بمعرّة النّعمان" [4] . و"النّعمان" هذا هو الصحابي الجليل رضي الله عنه النعمان بن

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٣٥٧ وما بعدها بتصرف

(٢) اللزوميات ص١٢٨ الأمين : الكنف .

(٣) ذاته ص٥٤ .

(٤) رسائل أبي العلاء : لمرجليوث ص١١ .

بشير الأنصاري"، وقد تدبّر أمر "المعرّة"، فنُسبت إليه. وينتهي نسب أبيه إلى "قضاعة"، ثم إلى "تنوخ". وأمّا والدة "أبي العلاء" فمن "آل سبيكة". وهي ابنة "محمد بن سبيكة". وقد ذكر "ابن النديم" على وجه الاحتمال أن أباها من أهل "حَلَب"[1]. وهي أسرة ذات أدب وفَضْل.

وقد اتصل "أبو العلاء" بخاله "على بن محمد بن سبيكة"[2]، وبرجل آخر كان أديباً منظوراً، وهو "أبو طاهر المشرف بن سبيكة"[3]، وكانت أمُّه تعطف عليه عطفاً شديداً، وقد اشتدّ عليه المرض وهو في "بغداد"، وفي أثناء الطريق إلى "المعرّة" بلغه "نَعْيُها". وكانت وفاتها سنة أربعمائة للهجرة ١٠٠٩م تسعة وألف من الميلاد. وكان وقع هذه المصيبة شديداً على نفسه. ولقد كان "لتنوخ" في "المعرّة" مكانة سامقة، تفرّع منها عدّة أُسَر كانت ذات علْم وفضل وشرف، منهم "آل حصين". و"آل عمر". و"آل المهذّب"، و"آل زريق" و"آل جهير"، و"آل سليمان"، وهم أجداد شاعرنا "المعرّي"[4].

وكانت ولادته لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة، وقيل: سنة ست وستين وثلاثمائة للهجرة. لثلاث بَقين من شهر ربيع الأول. ولم يكد "أبو العلاء" يتمّ الرابعة من عمره حتى أصيب بمرض الجُدري. فذهب بعينه اليسرى وحجب نور اليمنى ببياض، فكانت اليسرى مجوّفة غائرة، واليُمنى بارزة[5].

وكان يقول: "أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، وقد صنع لي. وأحسَن بي إذْ كفاني رؤية الثُّقلاء والبُغضاء".

وقد درس النحو واللغة في "معرّة النّعمان" على والده[6]، وبعض "بني كوثر" وتلامذة "ابن خالويه" الذي اشتهر في بلاط "سيف الدولة" في "حلب"[7]. فقد درس القرآن

---

(١) الأنصاف والتحري. لابن العديم ١٠١/٤ وما بعدها.
- وفيات الأعيان لابن خلكان - طبعة بولاق سنة ١٢٧٥هـ ٨/١:
(٢) الأنصاف والتحري: لابن العديم ١٠١/٤ وما بعدها
(٣) رسائل أبي العلاء" لمرجليوث ص٢٨، ٤٨، ٥٠، ٩٣
(٤) مجلة الهلال - عدد حزيران - سنة ١٩٣٨م ص٨٦٤ وما بعدها - لأنيس الخوري المقدسي
(٥) وفيات الأعيان: لابن خلكان ٧/١.
(٦) ابن العديم ١٣٨/٤، وياقوت الحموي ١٢٩/٣ وما بعدها
(٧) وفيات الأعيان: لابن خلكان ٧/١:

القرآن الكريم، وقرأه بعدّة قراءات [1]، على مشاهير علماء القراءة في عصره [2] وأخذ الحديث في مسقط رأسه عن جماعة من المحدّثين، منهم جَدّه، وجدّته، وأبوه وأخوه [3]. ويذكر "الذهبي" أنه أخذ في "المعرّة" أيضاً عن ثقات المحدّثين، برواية "يحيى بن مصبر التنوخي" عن "ابن عروبة الحراني". هذا ما اكتسبه "المعرّي" الناشئ من محيطه العلمي: "القرآن" و"الحديث"، و"اللغة"، وما رافق ذلك من رواية الأشعار، وحفظ السِّير، ومعرف للوقائع عند هذا الحد كانت تقف عادة ثقافة الناشئ العادي، أما شاعرنا "أبو العلاء"، فلم يكن ناشئاً عادياً. بل كان طالباً طَمُوحاً، متعطّشاً للتحصيل، شديد الظمأ إليه، لذلك ضاق به محيطه، ونَبَا به موطنه، فرحل إلى البلاد قاصيها ودانيها طلباً للعلم وتحصيل المعرفة، فجال بين "أنطاكية"، و"حلب"، و"اللاذقية"، و"طرابلس"، و"العراق".. وقد كانت بغداد يومذاك منارة علم ومعرفة، ومحطّ رحال طلاب العلم والأدب، وعشاق الثقافة العربية، وسمّى نفسه بـ"رَهِين المحبسَيْن": العمى، وعُكُوفه في منزله، عكف على التعليم والتأليف، عازفاً عن ملذّات الحياة، حيث كان نباتياً لا يأكل لحوم الحيوان، كما عزف عن النساء فلم يتزوج، وأوصى أن يكتب على قبره:

هـــذا جنـــاه أبـــي علـــيّ ∴ ومـــا جنيْـــتُ علـــى أحَـــد

ولم تزل تلك حاله حتى لحق بالرّفيق الأعلى سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة النبوية الكريمة – رحمه الله تعالى.

ويقول عنه الأستاذ "كامل كيلاني": "أبو العلاء" رجل سوداوي المزاج، ممعن في السخط على الحياة، بالغ في سخطه وتبرّمه مَدَى لا يشاركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين. وهو مطّلع واسع الاطّلاع على أدب أكثر الأمم التي نقلت آدابها

---

(١) الذهبي ص١٢٩

(٢) ذاته ص١٣٥، وابن العديم ١٠٤/٤، وأيضا أبو العلاء ولزومياته ص٢٠ – ط: دار الجيل – بيروت – لبنان سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٣) ذاته ١٠٥/٤، وأيضا الذهبي ص١٣٠ : ١٣٥، ورأي في ابي العلاء : للشيخ/ امين الخولي رحمه الله.

إلى العربية، وعالم واع أخبارها. صادق حين يقول :

ما مرّ فى هذه الدنيا بنو زمـــن ∴ إلا وعندى من أخبارهم طـــرف

و"أبو العلاء" مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة، والرواية الواسعة لآدابهم المتباينة، ممحص فطن خبير بتمييز الأخبار، دقيق فى نقد زائف القول من صحيحه، وهو مفكّر، عميق التفكير، ملهم المعنى، ملقى الحجة، وعالم من أكبر أساطين اللغة المشهود لهم بالسّبق والتفوّق، وهو إلى ذلك شاعر فنّان، عريق فى الفنّ، عارف بروائعه ومواطن الجلال. وهو حرّ الفكر. واسع الخيال، فيّاض المعانى، مشْرِق الديباجة، لا يَعْتَاقه عن بلوغ غايته شأوٌ، ولا يقف فى سبيله حاجز.

هذه الميزات الباهرة هى أوّل ما يبدَهُكَ من شعر "أبى العلاء المعرّى" الحافل بروائع الفنّ والفلسفة. لَذْن تقرأ كتاب اللزوميات، فتطالعك كلّ صفحة منه بما يزيدك اقتناعاً بتلك المزايا العالية التى أفْرَدت "أبا العلاء"، فأحلّته أسْمَى مكان بين شعراء العربية جميعاً وتعاونت على تكوين شخصيته الجذابة، فمازته من بين جبابرة الفكر، وأساطين الفن المبرّزين. وأىّ روضة من رياض الفكر أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الرّوض الفكرّ البهيج، الذى تمتلئ به كل صفحة من صفحات "اللزوميات". تقرؤها فتطالعُ فيها سِفْراً من أسفار الحياة، حافلاً بأسْمى وأروع مخلّفات الفقه الإنسانى، وتتمثل أمامها الخوالج النفسية الغامضة واضحة جلية. لا لَبس فيها ولا إبهام [1].

بين العقيدة والموهبة :

كان "أبو العلاء المعرى" رقيق القلب، وفيّاً، كريماً، سخياً، قمع شهواته، وعزف عن رغائبه، بَيْد أنه كان سيّء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوىّ الذاكرة، سريع الحفظ. حاضر البديهة. لذا قرض القريض، وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه. ومشاركة المبصرين فى ألعابهم، فقد كان "أبو العلاء" يجيد لعب

(١) اللزوميات : للأستاذ / امين عبد العزيز الخانجى – المقدمة التى كتبها الأستاذ/ كامل كيلانى للروميات التى حققها الخانجى فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٢٤م بالقاهرة.

"الشطرنج"، ويدخل فى كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد ذهب الناس فى عقيدته مذاهب شتّى: فمنهم من اتّهمه بالإلحاد، ومنهم من يقول: "إن شعره مثل كلام المتصوفة، حيث إن لشعره ظاهراً وباطناً"، وبعضهم يقول: "إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه"، وبعضهم – بل أكثرهم – يرجّح أنه كان شاكّاً [1].

ونحن نذهب مذهب الذين يقولون: "إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه، حيث إن ثقافة "المعرّى" تنأى به عمّا اتُّهم ورُمى به من خصومه الألدّاء، وأعدائه وحُسّاده؛ حيث إنه حفظ القرآن الكريم بالقراءات المتعدّدة، وتلقّى حديث رسول الله ﷺ على أشياخ الحديث، فمن غير المعقول أن يجئ شعره فيه مسحة من ضلال، أو زيغ أو شئ مما رماه به الحسّاد، والحاقدون، وأهل الشّر من البشر، وقديماً كان فى الناس الحسد:

كل العداوة قد يُرجَى محبتها ∴ إلا عداوة من عاداك عن حَسَد

"فأبو العلاء" هو الذى يقول:

اركَع لربّك في نهارك واسجُد ∴ ومَتى أطقتَ تهجُّداً فتَهجَّد [2]

وقوله:

بوحدانيّةِ العلّامِ دِنّاً ∴ فَذَرني أقطعُ الأيّامَ وحدي

سألتُ عنِ الحقائقِ كُلَّ يومٍ ∴ فما ألفيتُ إلّا حَرفَ جَحدِ

سوى أنّي أزولُ بغيرِ شكٍّ ∴ ففي أيِّ البلادِ يكونُ لَحدي [3]

(٣)

الخصائص الفنية لشعر "أبي العلاء المعري":

---

(١) تاريخ الأدب العربى: للزيات ص٣٤٧ بتصرف، وتاريخ الأدب العربى: لكارل بروكلمان ص٣٦٠ بتصرف.

(٢) اللزوميات – تحقيق: الأستاذ / أمين عبد العزيز الخانجى ص٢٨١ رقم "١٢٠".

- أبو العلاء واللزوميات – للدكتور / كمال اليازجى – ط: دار الجيل – بيروت – لبنان سنة ١٤٠٨-١٩٨٨م

(٣) اللزوميات – تحقيق: الأستاذ/ أمين عبد العزيز الخانجى ٢٧٨/٦.

ينقسم شعر "أبي العلاء المعرّى" إلى قسمين :

أولاً : شعر التباب، ويحويه ويجمعه ديوان "سقط الزند".

ثانياً : شعر الكهولة . وقد حوته "اللزوميات"، وشعره في الشيبة كان كثير "المبالغة" واضح التقليد، بيّن التكلّف، وقد قلّد فيه الشاعر "المتنبى"، واستخف بقواعد اللغة، وجارَى شعراء عصره في البديع. وقد خاض غِمار أغراض الشعر، وقد سلمت له في هذا الطَّوْر جملة من القصائد المختارة في فنّ "الرّثاء"، و"المديح" و"الفخر".. وأما شعره في "الكهولة" فجاء قليل "المبالغة" و"التكلّف"، عارض فيه "أبو العلاء" المتقدّمين، مؤثراً اللفظ الجزل، والأسلوب البدوىّ. والتزام ما لا يلزم، وأكثر من البديع، والجناس، وأودعه فلسفته وآراءه، وحشاه بالألفاظ الغريبة، والتّراكيب الغامضة، وقد ابتدع، واختَرَع، واختَرَع في شعره "مناجاة الحيوان". مثل محاورة "الدّيك للحمامة"[1]

نثره ومؤلفاته :

وقد جاء نثره مثل شعره يختلف في "كُهولته" عنه في "شبابه"، فقد كان كثير المبالغة متكلّفاً في سجعه، كثير المصطلحات العلمية. ثم نراه قد حكّم فلسفته في نثره، فجاءت على إثر ذلك قليلة المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني، بيْد أن كتابته لم تكن خلواً من الغموض والتطويل. ومن مؤلفاته: "سقط الزّند"، و"اللزوميات"، و"ديوان رسائله" و"رسالة الملائكة"، و"رسالة الغُفران"[2].

فمن قصيدة له في الرّثاء :

غيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي ∴ نوْحُ باكٍ ولا ترنّمُ شادِ

وشبيهُ صوْتِ النّعيّ إذا قيـ ∴ ـس بصوْتِ البَشير في كلّ نادِ

---

(١) تاريخ الأدب العربى. للأستاذ/ أحمد حسن الزيات ص٣٤٨ بتصرف.
(٢) دائه ص٣٥٠

أبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أمْ غَنَّ ∴ نَتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِها المَيَّادِ
صَاحِ هَذِي قُبُورُنا تَمْلأُ الرُّحْ ∴ بَ فأينَ القُبُورُ مِنْ عَهدِ عَادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظُنَّ أديمَ ال ∴ أرْضِ إلاَّ مِنْ هَذِهِ الأجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ دُ هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدَادِ
سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهَوَاءِ رُوَيداً لا اخْتِيالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدَادِ
وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ في طَوِيلِ الأزْمَانِ وَالآبَادِ
فاسْأَلِ الفَرْقَدَينِ عَمَّنْ أحَسَّا مِنْ قَبِيلٍ وآنَسَا مِن بِلادِ
كَمْ أقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ وَأنَارَا لِمُدْلِجٍ فِي سَوَادِ
تَعَبٌ كُلُّهَا الحَيَاةُ فَمَا أعْـ جَبُ إلاَّ مِنْ رَاغِبٍ في ازْدِيَادِ[1]

ازْدِيَادِ[1]

ويقول مفتخراً :

ألا في سبيلِ المَجْدِ ما أنا فاعِلُ ∴ عَفافٌ وإقْدامٌ وحَزْمٌ ونائِلُ
أعندي وقد مارَسْتُ كُلَّ خَفِيَّةٍ ∴ يُصَدَّقُ واشٍ أو يُخَيِّبُ سائِلُ
أقَلُّ صُدودي أنَّني لكَ مُبْغِضٌ ∴ وأيْسَرُ هَجْري أنني عنكَ راحِلُ

ويقول – رحمه الله – في "اللزوميات" :

غدوت مريض العقل والدين فالقني ∴ لِتَسمَعَ أنباءَ الأمورِ الصَحائِحِ
فلا تَأكُلَنْ ما أخرجَ الماءُ ظالِماً ∴ ولا تبغِ قوتاً من غريضِ الذبائِحِ[2]

الذبائِحِ[2]

---

(١) سقط الزند : أبو العلاء المعرى – دار صادر – بيروت .
(٢) الغريض : الطرىّ من اللحم وغيره .

وأبيضَ أمّـاتٍ أرانت صَـريحَهُ ∴ لأطفالها دونَ الغَواني الصَرائحِ
ولا تفجَعَنَّ الطيرَ وهيَ غَوافِـلٌ ∴ بما وَضَعَت فالظُلْمُ شرُّ القَبـائحِ
ودَع ضَربَ النحلِ الذي بَكَرَت لهُ ∴ كَواسبَ من أزهارِ نَبتٍ فَوائحِ (١)
فما أحرَزَتهُ كَي يَكـونَ لِغَيرِهـا ∴ ولا جَمَعَتـهُ للنَـدى والمَنـائحِ
مَسَحتُ يَدَي من كُلِّ هَذا فَلَيتَنـي ∴ أَبَهتُ لِشَأني قبلَ شَيبِ المَسائحِ (٢)
بَني زَمني هَل تَعلَمونَ سَـرائراً ∴ عَلِمتُ ولَكِنّي بها غَيـرُ بـائحِ
سَرَيتُم عَلى غَيٍّ فَهَلّـا اهتَـدَيتُمُ ∴ بِما خَيَّرتكُم صـافِياتُ القَـرائحِ
وصاحَ بِكُم داعِيَ الضَلالِ فما لَكُم ∴ أَجَبتُم عَلى ما خَيَّلَت كُلُّ صائحِ
مَتَى ماكَشَفتُم عَن حَقائِقِ دينِكُم ∴ تَكَشَّفتُم عَن مُخزِياتِ الفَضـائحِ
فَإن تَرشُدوا لا تَخضِبوا السَيفَ من دَمٍ ∴ ولا تُلزِموا الأميالَ سَبرَ الجَرائحِ (٣)
ويَعجِبُني ذَأبُ الَّـذينَ تَرَهَّبـوا ∴ سِوى أَكلِهِم كَدَّ النُفوسِ الشَحائحِ
وأَطيَبُ مِنهُم مَطعَماً في حَياتِـهِ ∴ سُعاةُ حَلالٍ بَينَ غَـادٍ ورائـحِ
فَما حَبَسَ النَفسَ المَسـيحُ تَعَبُّـداً ∴ ولَكِن مَشى في الأَرضِ مَشيَةَ سـائحِ
يُغَيِّبُني في التُربِ مَن هُوَ كـارِهٌ ∴ إذا لَم يُغَيِّبني كَريـهُ الـرَوائحِ
ومَن يَتَوَقّى أَن يُجـاوِرَ أَعظُمـاً ∴ كَأَعظُمِ تِلكَ الهالِكاتِ الطَـرائحِ
ومِن شَرِّ أَخلاقِ الأَنيسِ وَفِعلِهِـم ∴ خُوارُ النَواعي وَالتِدامُ النَـوائحِ (٤)
وأَصفَحُ عَن ذَنبِ الصَديقِ وَغَيرِهِ ∴ لِسُكنايَ بَيتَ الحَقِّ بَينَ الصَفائحِ
وأَزهَدُ في مَدحِ الفَتى عِندَ صِدقِهِ ∴ فَكَيفَ قَبولي كاذِبـاتِ المَـدائحِ

---

(١) ضرب النحل : هو العسل الأبيض الغليظ .
(٢) أبهتُ: انتبهت . المسائح : الذوائب، أو ما بين الصدغين إلى الجبهة .
(٣) الأميال: الميل هنا هو : المرود يُسبرُ به الجرح ليُعلم مقدار عمقه، فسبرُ الشيء: يعني اختبره، وتقول: سبرت غورَ الشيء: أي خبرته.
(٤) خوار النواعي : صياحها .التدام النوائح : ضربهن صدورهن في النياحة .

وَما زالَت النَفسُ اللَجوجُ مَطِيَّـةً ∴ إلى أن غدت إحدى الرَدايا الطلائح [1]

وَما يَنفَـعُ الإنســانَ أنَّ غَمائِمـاً ∴ تَسُحُّ عَلَيهِ تَحتَ إحدى الضَرائِحِ

ولَو كانَ في قُربٍ مِنَ الماءِ رَغبَةً ∴ لَنافَسَ ناسٌ في قُبورِ البَطائِحِ [2]

وهذه القصيدة تتضمن كثرة كاثرة من آرائه الفلسفية، والتى تعجّ بالحكمة، وتنطق بمأثور الكَلِم، والتى تدل أيضاً على سعة خياله، فهو شاعر فنّان، عريق فى الفنّ، عارف بروائعه، خبير بأسرار الجمال، ومواطن الجلال، وهو حرّ الفِكْر، واسع الخيال، فيّاض المعانى، مُشْرِق الدِّيباجة، لا يعْتاقه عن بلوغ غايته شأوٌ، ولا يقف فى سبيله حاجز.

هذه الميزات الباهرة هى أوّل ما يَبْدَهُك من شعر "أبى العلاء"، الحافل بروائع الفنّ والفلسفة، وتلك من مزايا شاعرنا الفيلسوف، أو الفيلسوف الشاعر والتى أجلّته ورفعته مكاناً عليّاً بين شعراء العربية جميعاً، كما تعاونت على تكوين شخصيته الجذّابة فَمَازَتْه من بين جبابرة الفكر، وأساطين الفنّ المبرّزين، وأى روض من رياض الفكر أخْفَلُ بروائع الفلسفة والفنّ من ذلك الرَّوض الفكرىّ البهيج، الذى تعجّ به كلّ صفحة من صفحات "اللّزوميات"، تقرؤها فتطالع سِفْراً من أسفار الحياة الحافل بأسْمى وأرْوَع مخلفات العقل الإنسانى، وتمثل أمامها الخوالج النَّفسيّة الغامضة واضحة جليّة، لا لَبْسَ فيها ولا إبْهام.

الطغرائي:

هو الشاعر "الحسين بن علىّ" المعروف "بالطّغرائى"، ويكنى "أبو إسماعيل". ولُقب "بالطغرائى" نسبة إلى مهنته التى كان يمتهنها أوّل حياته، فقد كان يكتب "الطغراة"، "الطّرة" فى أعلى الكتب بخط خاص فيها نُعوت السلطان وألقابه، وقد ولد "الطغرائى" فى "أصفهان" سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة للهجرة، من أسرة فارسية، ثم تقلب فى ظلّ "آل سلجوق"، وكان وزيراً للسلطان "مسعود السّلجوقى" فى "الموصل"، وصار يُنعت

---

(١) طلح: يعنى أعيا وتعب. الردايا: جمع رِدية وهى الناقة المعيبة، وتقول: رَدِيت اذا أعيت وكذلك الطلائح.

(٢) اللزوميات – تحقيق: الخانجى ٢١٨/١ وما بعدها – رقم "١٩" – نشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة.

ويُوصف "بالأستاذ"، ويُلقّب "بالمنشئ"، فلمّا نشبت الحرب بين السلطان "مسعود"، وأخيه السلطان "محمود" بالقُرب من "همذان"، وكانت النصرة والغلبة للسلطان "محمود"، وفي هذه الحال أُسر "الطّغرائي"، ثم أغْراه وزيره "نظام الدين" بقتله، وحرَّضه على ذلك بعض حُسّاده من رؤوس الكُتّاب، فرَمَوْه بالإلحاد، فقُتل ظُلماً من جرّاء هذا الاتّهام، وكان ذلك عام ٥١٣هـ، وقيل عام ٥١٥هـ[1].

وكان شعره جيداً، متين القافية، وألفاظه مُنتقاة، يغلب على شعره "الفخر" و"الحكمة"، وكان نثره من طبقة شعره في إحكام الصّنعة، ورصانة الأُسْلوب وله ديوان شعر كبير، أكثره في مدح السّلطان "سعيد بن ملك شاه"[2].

وقد اشتهر "الطّغرائي" بمعرفته العميقة بالصّنعة، أو كما نقول الآن "علم الكيمياء" وله فيها أشعار تصوّر هذا الضّرب العلميّ أو التعليميّ. ويكثر لديه ولدى مُعاصريه معارضته للشاعر "الشّريف الرّضي"، و"مهيار الدّيلمي" في بعض قصائدهما، وربّما كانت "لاميّته" من أروع وأجْوَد قصائده، من حيث قوة السّبك، وجميل الصياغة، ومع ذلك فقد حاول "الصّفديّ" في شرحه لها أن يردّ معاني أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقيه، وكان "الطّغرائي" مثل شعراء عصره، يصطنع فنون البديع، وأيضاً فنون التكلّف. والحقّ والحقّ نقول: إن "الطّغرائي" كان شاعراً بارعاً حتى إنه بلغ من إعجاب الذين سيقود أنهم عارضُوا "لاميّته"، وهم كُثُرٌ من شعراء زمانه.

يقول في مطلع "لاميّته":

أصالةُ الرأي صانتْني عن الخَطَلِ ∴ وحليةُ الفضل زانتني لدى العطـــل

وقد اشتهرت خطأ باسم "لامية العجم"، مع أن قائلها عربي الأرومة، ولا نرى في اللامية رائحة تعصب للعجم ضد العرب، ولعلها سمّيت بذلك لأن قائلها كان يعيش في بلاد العجم، وحملها على "روي" "لاميّة العرب" "للشنفرى"، وموضوعها: شكوى

---

(١) تاريخ الأدب العربي: للزيات ص٣٢٦، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ص٥٤٥ بتصرف
(٢) تاريخ الأدب العربي: للزيات ص٣٣٦

الزمان وأهله، وهي شكوى فيها مغالاة ومبالغة واضحة، ومع هذا فستظل له فضائله التي يفتخر بها، وربما أشار بتعطّله من وظيفته الديوانية حينئذ أو ربّما يومئ ويشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العُطل [1]. وقال مفتخراً بثقافته العالية الراقية، وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ ببغْيَتي ∴ منها فما أحتاجُ أنْ أتعلّما
وعرفت أسرارَ الخليقةِ كلَّها ∴ علماً أنارَ ليَ البهيمَ المُظلما

ونراه يُرزق مولوداً بعد أن بلغ من الكبر عتيّاً، فيقول:

هذا الصغيرُ الذي وافى على كِبَري ∴ أقرَّ عيني ولكنْ زادَ في فِكَري
سبعٌ وخمسون لو مرّتْ على حَجَرٍ ∴ لبانَ تأثيرُها في صفحةِ الحَجَرِ

وقال يرثي زوجه :

ولم أنسَها والموتُ يقبضُ كفَّها ∴ ويبسُطُها والعينُ ترنو وتَطْرِقُ
وقد دمعَتْ أجفانُها وكأنها ∴ جَنَى نرجسٍ فيه النَّدى يترقْرَقُ
وحلَّ من المحذورِ ما كنتُ أتَّقي ∴ وحُمَّ من المقدورِ ما كنتُ أفْرَقُ
وقيل فِراقٌ لا تلاقِيَ بعدَهُ ∴ ولا زادَ إلّا حسرةً وتحرُّقُ
ولو أنَّ نفساً قبلَ محتومِ يومِها ∴ قضتْ حسراتٍ كادت النفسُ تزهقُ
هلالٌ ثوى من قبلِ أن تَمَّ نورُه ∴ وغصنٌ ذوى فينانُه وهو مورِقُ
فواعجَباً أنّى أُتيحَ اجتماعُنا ∴ ويا حسرةً من أينَ حُمَّ التفرُّقُ
ولم يبقَ فيما بيننا غيرُ حثْوةٍ ∴ على العينِ تُحثى أو على القلب تُطبَقُ
أحنُّ إليها إنْ تراخى مزارُها ∴ وأبكي عليها إنْ تدانى وأشفَقُ
وأبلسُ حتى ما أبينُ كأنّما ∴ تدورُ بي الأرضُ الفضاءُ وأصْعَقُ

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) – د/ شوقي ضيف ص٥٨٤ .

وألصقُها طوراً بصدري وأشتفي ∴ وأمسحُها حيناً بكفي فتعبقْ
وما زُرتُها إلّا توهمتُ أنّها ∴ بثوبي من وجدي بها تتعلّقْ
وأحسبُها والحُجْبُ بيني وبينَها ∴ تعي من وراء التُّرب قولي فتطرقْ
وأشعرُ قلبي اليأسَ عنها تصبُّراً ∴ فيرجعُ مرتاباً به لا يُصدّقْ [1]

(١) المنتخب من كلام العرب : للدكتور/ طه حسن وآخرين ١/١٤٣

أهم المصادر والمراجع

❖ ابن المقفع – تأليف/ سليم الجندى – ط : دمشق – سوريا.

❖ ابن المقفع – تأليف/ عبد اللطيف حمزة – ط : دار الفكر العربى ١٩٥٢م – الثانية.

❖ ابن المقفع – لابن خليل مردم – مطبعة الاعتدال – دمشق – سوريا.

❖ ابن المقفع – لحنا الفاخورى – دار المعارف – بيروت – ١٩٥٧م.

❖ ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة – د/ عمر فروخ – لبنان ١٩٤٩م.

❖ أبو العلاء ولزومياته – د/ كمال اليازجى – ط : دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

❖ اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى – للمؤلف/ أ.د/ على الخطيب.

❖ أخبار أبى تمام – للصولى .

❖ الأخبار الأدبية – د/ حمدان عبد الرحمن – مطبعة الأمانة – ط : الأولى ١٩٨٩م.

❖ أخبار الحلاج – تقديم وتعليق : عبد الحفيظ محمد مدنى هاشم.

❖ الأدب الصغير – أحمد زكى – ط : دار المعارف – القاهرة.

❖ الأدب العربية فى العصر العباسى – د/ خفاجى.

❖ الأدب الكبير والأدب الصغير – د/ يوسف خليفة – ط : دار البيان.

❖ الأدب المقارن – د/ محمد غنيمى هلال.

❖ الأدب الوجيز – للولد الصغير – ترجمة وتحقيق : محمد غفران الزاوائى.

❖ الأدب فى عصره الذهبى – د/ عبد الرحمن عثمان.

❖ آراء فى الشعر العربى – مذاهبه وفنونه – للدكتور/ عبد الرحيم محمود زلط.

❖ أسس النقد العربى – للأستاذ أحمد بدوى.

❖ الأعلام – للزركلى .

❖ الأغانى – لأبى الفرج الأصفهانى – ط : دار الكتب .
❖ الأغانى – لأبى الفرج الأصفهانى.
❖ الأنساب – للسمعانى.
❖ البخلاء وقصور المجتمع العباسى – د/ أحمد أحمد منصور نفادى.
❖ البيان والتبيين – للجاحظ .
❖ البيان والتبيين للجاحظ .
❖ تاريخ الأدب الأموى – أحمد حسن الزيات.
❖ تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات .
❖ تاريخ الأدب العربى – الأعصر العباسية – د/ عمر فروخ.
❖ تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف – ط : دار المعارف.
❖ تاريخ الأدب العربى – د/ عمر فروخ – ط : دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – سنة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
❖ تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان .
❖ تاريخ الأدب العربى – لكارل بروكلمان .
❖ تاريخ الأدب العربى – للأستاذ / أحمد حسن الزيات.
❖ تاريخ الأدب العربى – للدكتور / عمر فروخ .
❖ تاريخ الأدب العربى .
❖ تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر – د/ أحمد منصور نفادى.
❖ تاريخ الأدب فى العصر العباسى – د/ عبد المنعم خفاجى.
❖ تاريخ الكنيسة المصرية – مجلة الهلال – عدد ديسمبر سنة ١٩٧٧م.

❖ تاريخ بغداد – للخطيب البغدادى .
❖ تاريخ بغداد – للخطيب البغدادى.
❖ تاريخ بغداد .
❖ تذكرة الأولياء – للعطار.
❖ التصوف الإسلامى – تأليف/ محمود أبو الفيض المنوفى.
❖ التصوف عند المستشرقين - د/ أحمد الشرباصى.
❖ التصوف عند المستشرقين من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة.
❖ تلبيس إبليس – للحافظ الإمام/ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى – مكتبة الإمام سنة - ١٩٨١م.
❖ التوجيه الأدبى – د/ طه حسين.
❖ حلية الأولياء – لأبى نعيم الأصفهانى.
❖ خزانة الأدب .
❖ دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثامن.
❖ دائرة المعارف الإسلامية (مارجليوس).
❖ دائرة معارف القرن العشرين : للأستاذ/ محمد فريد وجدى.
❖ دراسات فى الأدب الصوفى – د/ محمد عبد المنعم خفاجى .
❖ دراسات فى الأدب العباسى – د/ عيد قناوى .
❖ دراسات فى الأدب العباسى – د/ عيد قناوى.
❖ دراسات فى الأدب العباسى – د/ كمال لاشين .
❖ دراسات فى الأدب العباسى.
❖ الديباج المذهب – لابن فرحون .
❖ ديوان ابن أبى حفصة .